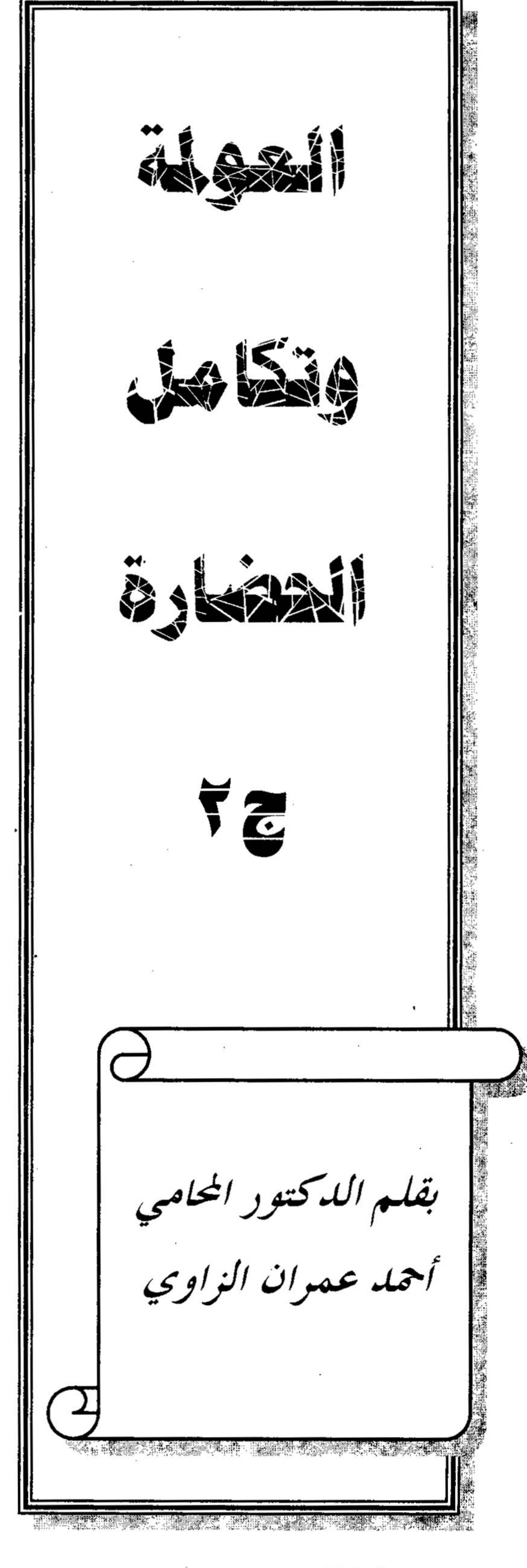


العولمة

والآن: ما هي العولمة..؟

وهل من فرق بين أميتها والأمية الاشتراكية؟

أ- العولمة هي ابنة (العالمية)

والعالمية هي ابنة (العلمانية)

العلمانية الجدة كانت الصرخة التي انطلقت من مئات الحناجر مطالبة بالتحرر من الإقطاع وسلطة الكنيسة. ثم تحولت من الضجيج الضوضائي إلى حركة سياسية أخذت على عاتقها الأسس القانونية التي ينبغي أن يبنى عليها النظام، الذي ينبغي أن يحقق مصالح الأكثرية، ويسقط إلى الحضيض قداسة الفروق التي ورثتها بعض الفئات، دون أي جهد مقابل لقد حملت الفلول الصليبية إلى بلدانها أطناناً من حضارة العرب وطرحتها في المجتمعات الأوربية التي كان يلفها الظلم والظلام.

أنواع العلوم والفنون والفلسفة والمنطق وأصول الحكم دخلت إلى بلدان أورب فطردت تلك العبوديات التي كانت تعتقل عقل الإنسان وكان ذلك جميعه خمائر الفكر الذي قام عليه بناء الثورة الفرنسية. التي سعت في سماء القرون القادمة مثلما تسطع الشمس، ولكن الجسد الاجتماعي يشبه في تطوره الجسد الإنساني، إذ يضيق عليه ثوب الحضارة، فيطمح إلى امتلاك ثوب على مقاسه الجديد.

إن إرخاء العنان للحرية، حرية التصرفات الذي جاء رد فعل على عملية (كتم النفس) التي ظل يعاني منها، الإنسان قروناً عديدة.

الحرية المفتوحة المطلقة ملأت المجتمع حتى الاختناق بقيم وثوابت جديدة لقد أفرزت المجتمع إلى فئتين:

١- فئة الأغنياء الأذكياء

٢- فئة الفقراء الأغبياء

حيث استفادت الأولى من ذكائها فتمكنت من استغلال الثانية على فائض قيمة جهودها.

ومثلما فرضت حاجة المجتمع إلى خلع الإقطاعية وارتداء العلمانية. فرضت حاجته الجديدة في بعض البلدان تعمق فيها الهامش بين الفقراء والأغنياء إلى خلع العلمانية والنداء بالعالمية.

فلم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان الإنسان على موعد مع فكر جديد فكر – طرح نفسه محراثاً اجتماعياً – مدمراً للنظم والثوابت مسلطاً أنواره على أعمق حاجات الإنسان ليملأها بالهواء والضياء.

لقد وضع ماركس وإنجلز في بيانهما بعام ١٨٤٨، فلسفة اجتماعية تختلف اختلافاً نوعياً عما هو سائد، فلسفة هي محراث حقيقي أعداه لكي يقلب تربة المجتمع بنظمها ومثلها، وقوانينها، وثوابتها رأساً على عقب ويضع البديل الذي يعبّر عن إنسانية الأكثرية البشرية المسحوقة. قالا:

"نعم كان النظام علمانياً ولكن الفوارق بين الأغنياء والفقراء تزداد حدة واتساعاً وتنوعاً يوماً عن يوم"

ففي قاموس البؤس الاجتماعي، لا تجد الرقبة المصفوعة فرقاً بين أن تنزل عليها الصفعة من الإقطاعي أم من الرأسمالي فقط تحس بشيء واحد هو قوة الصفعة التي تسقط عليها.

وتابعوا:

"إن معانات الفقراء واحدة في جميع أنحاء العالم، وسعادة الأغنياء واحدة في جميع أنحاء العالم، ومثلما تتماثل أسباب الفقر في كل مكان، تتماثل أسباب الغنى في كل مكان. ومثلما يرث الغني أبناء الأغنياء، يرث أبناء الفقراء الفقراء"

ومنذ زمن بعيد تحكمت بالفقر والغنى أعراف وتقاليد. حتى لقد غدا مألوفاً اجتماعياً ألا يرفع الفقير رأسه إلا ليرى عقب الغني هابطة عليه من الأعلى.

فالعلمانية التي ألغت من قناعات الناس نظم الإقطاع والغيبيات تركتهم في مهب الغرائز البشرية التي لم تلبث أن امتلكت زمام الاقتصاد، فانحت أمامها النباتات ذات البنية الضعيفة حتى إذا مر وقت يسير عادت التشكيلة الاجتماعية من جديد مع فارق في الأسماء فقط.

حيث حلَّ الغني محل الإقطاعي، والأجير محل الفقير، ولم تقف الأمور هنا، بل اخترق المتحكمون حرم النصوص الدينية فأولوها على غير مراميها، مخدرين بها بحر التعساء.

لقد طرحوا بين المؤمنين مقالة المسيح: ((إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله))

وقالوا حظوظ الآخرة على عكس حظوظ الدنيا، دون التفات إلى النفخة التصوفية السامية في أقوال السيد التي رمت من وراء هذا القول، إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يعتمد على غير الله للوصول إلى ملكوت الله.

هــذا الــنداء ذو النبــرة الاشــتراكية العالية:(يا عمال العالم اتحدوا).

تــوجه بــه ماركس وإنجلز إلى جميع العمــال فــي العــالم، مهيبين بهم أن يتحدوا ليــصنعوا التاريخ مثلما يصنعون أسباب الحياة من الإبرة والمسمار حتى أضخم المكائن.

ومــع أنهــا أمية فتنت ملايين الناس. وأقــيمت علــيها (نُظــم سياســية) و(فلسفة اجتماعــية) وســار فــي ظلها. نصف سكان الأرض تقريباً.

فقد:

- ظلّت ضمن حدود الوطن، لم تتجاوزه إلى غيره من الأوطان.
- وفــي الــوطن الخــصائص القومــية واللغوية والعقائدية خطوطاً حمراء لا يجوز المساس بها.
- وقــصرت ســيادتها وقــيادتها علــى الاقتصاد والسياسة.

تاركــة للطبــيعة الــتعددية أن تتابع مسيرتها بكامل الهدوء، لقد اكتفت بأن وضعت الجمــيع اقتــصادياً. داخل الجدران الاشتراكية وفــيما عــدا ما تحتاجه الاشتراكية من رقابة وقوننة وتنظيم – لم تتدخل – الاشتراكية فيه، فتركته وشأنه.

أمّا العولمة:

فهــي المقابــل الجديد، الكالح الشديد للاشــتراكية. أخــذت عنها تحرُّر المجتمع من الغيبــيات، وحيــنما انتهت من غسل الأدمغة، طرحت إلى التداول نظرية (العالم بلا حدود ولا فواصل).

العــالم الذي يضم أميين، تخففوا من الهويات، وقطعوا صلاتهم بالتاريخ والمحددات الوطنــية والجغرافية، وقبلوا أن يكونوا أرقاماً صماءً في هذا العالم.

قال العولميون:

ذلك قدرٌ لا مفرَّ منه تنحدر إليه جميع الأمــم، ففــي فــرن العــولمة ينصهر الجميع فيخــرجون من بحر النّار لدائن مطواعاً للطيّ. واللّي والصياغة من جديد. الأعمى هو الذي لا يرى ما آل إليه الكون.

- المــسافات التــي كانت تفصل بين الأمــم طــوتها أجــنحة الطــيارات ومحركات السيارات والقاطرات والبوارج.
- مخفــيات الأمم، حتى المخبوء في السراديب والإنفاق لم تعد عصيّة على الأقمار الاصطناعية.
- صــار العــالم في كل مكان يسمع الصوت ويرى صاحبه في لحظة الكلام.

مما يذكرنا بذلك الذي عنده علم من الكتاب فقــال لسليمان متعهداً أن يجلب عرش بلقيس مــن الــيمن بالسرعة التي ذكرها:(أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك... النمل ٢٧/٤٠).

- العــالم جمــيعه يستــضيء بــنور الشمس نهاراً وبالقمر والنجوم ليلاً.
- العــالم جمــيعه تمر عليه الفصول الأربعــة فتــصنع الحياة في الإنسان والحيوان والنبات.

وبــتقدم العلــوم، تبين أن هذا العالم الذي نعيش فيه ليس أكثر من قريةٍ صغيرة في هــذا الكــون الكبيــر. وصارت الاتصالات بين القــارات، بــسهولة الاتصالات بين البيوت في الحي الواحد.

ومهمـا أوصـدت الأمم أبوابها، فإن مخدلة العولمة تتحرك ببطء الكبرياء. تبتر من طـريقها النواتئ. وتردم الحفر وتسوّي العالم مهاداً عولمياً لا عوج فيه.

غيـر أنـه لم يمض غير اليسير من الـزمن. حتى تبين للناس، أن العولمة ظاهرها حضاري وباطنها استعماري. ففي البلدان التي سـارت بهـا قامـت أميتان، (أمية الأغنياء) و(أمـية الفقراء). وما ذلك إلا لأن جوّ الحرية المطلقـة مكّـن رأس المال من أن يتحرك في جمـيع الاتجاهـات. فبـرزت حيتان المال من صيارفة وتجار وشركات عابرة للقارات.

وممـا عمـق الهـامش الاقتـصادي والثقافـي بين الأغنياء والفقراء. دخول الآلة، هذا المارد الأصمّ.

الذي لا يتعب ولا يعرق ولا يلهث، ولا يمـرض، ولا يطالب برفع الأجور، والتعويض العائلي، والإجازات والساعات الإضافية.

ويمـتاز فوق ذلك بالنمطية و الإتقان. والسرعة القصوى والطاقة التي تزيد في الآلة الواحدة على ما لدى عشرات العمال.

هـذا المـارد تربّع في المعامل وطرد مـنها عشرات الملايين الذين طفقوا يعرضون عـضلاتهم بـأبخس الأثمـان وأدنـى درجات الكرامة.

إن مؤتمـر أقطـاب العـولمة فـي (دروبـان) عارضته ثلاثة آلاف منظمة ونقابة دولية. جميعها أرسلت مندوبيها الذين ظلوا في حالـة تظاهر طيلة أيام المؤتمر ولكن ذلك. لم يؤثر كثيراً على التيار الذي ظلّ هدّاراً لا يلوي على شيء.

وحيـنما سقطت التجربة الاشتراكية. انـتفخت أوداجـه من الغرور معتبراً أنه بذلك الـسقوط اكتـسب بـرهاناً جديداً على النظام الرأسـمالي هو الوحيد الذي ينسجم مع طبائع الإنسان في كل مكان حتى الطبائع التي أيبسها الـنظام الاشـتراكي وأن الحتمـية التي امتلأ الكـون بـضجيجها الاشـتراكي ليست – في الحقـيقة – سـوى هـوية الـنظام الرأسمال ورفيقـته حتـى آخر مسيرة الإنسان على هذا الكوكب. ففي النظام الرأسمالي وجدت الحتمية لتبقـى ولكن تبين للدارسين أن لا حتمية ثابتة علـى الـزمن. فالـتاريخ الذي هو من صنع الإنـسان يسير على الدوام. وهو إن توقف في بعـض المحطّـات، فلكـي يجـدّد الإنـسان المـستجدات آلـيات الحـياة بمـا يتلاءم مع المستجدات.

لقـد كـان الأنبياء أول من أدرك هذه الحقيقة. فتعاملوا مع السابق باحترام وبشّروا بما هو قادم.

- قـال المسيح عليه السلام: ((ما جئت لأنقض جئت لأكمل)).
- وقـال محمـد ﷺ: ((إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق)).

فالأخلاق الفاضلة وإن كانت من أوامر الله، بُلّـغ منها بمقدار تطور الإنسان وإمكانية اسـتيعابه. وسـوف يتلوها. ما يغطي حاجات الإنسان التطورية في كل زمن. ولكن التطور لا يأتـي انفجاراً من العدم، بل ينمو الجديد جنيناً فـي رحـم القـديم، حتى إذا ازدادت تناقضات القديم وقامت الحوامل الاجتماعية التي تستطيع أن تحمـي الجديد. برز هذا حالاً محلّ معاكسة الاجتماعـي – سالكاً ذات الطريق، حيث يتكون

في رحمه نظام جديد ينمو ويسرع الخطا بمقدار ما تتكاثر وتتراكم أخطاء القديم.

لقد أوضح الفلاسفة الروس (بليخانوف) و (كامينيف) و (زينوفييف) إلى لينين هذه الحقيقة الاجتماعية.

وقالوا: لقد ولد النظام الرأسمالي من أخطاء وتناقضات النظام الإقطاعي. وكانت الولادة طبيعية بسبب تفاقم أخطاء النظام السابق وعجزه عن حل المشاكل الاجتماعية.

وتابعوا: إذا اخترت سياسة حرق المراحل - فسوف تحظى بمخلوق اشتراكي غير مكمّل النمو - وإذ ذاك سوف نضطر إلى وضعه في غرفة الإنعاش.

ولكن لينين الذي كان قد ضاق ذرعاً بتخلف المجتمع الروسي اقتنع بضرورة الانتقال بالإنسان السوفييتي، من العالم الرأسمالي، معتقداً أن بلسم الاشتراكية سوف يشفي جراح الأمة مهما كانت عميقة. فأجرى عملية قيصرية استخرج بها الجنين الاشتراكي قبل اكتماله - ووضعه على الفور - في غرفة الإنعاش، التي لم تكن غير الديكتاتورية وإلغاء الآخر من عوالم الفكر. والسياسة والاقتصاد.

ومع أنه تنبّه فيما بعد إلى ضرورة (روسنة الماركسية) كما قال، وأعلن أنها أحجار تُبنى بها المجتمعات على ضوء ظروفها الموضوعية، فقد وافاه الأجل قبل أن يضع هذا الراي موضع التطبيق. تاركاً كل شيء إلى خلفائه الذي أسكرتهم السلطة. ففرضوها دون رحمة. وأقصوا من الحياة كل فكر آخر. وأقاموا حول البلاد ستاراً منع عنها الضياء والهواء.

لذلك، وما أدرك السبعين، حتى كانت التجربة السوفيتية ثمرة ناضجة جاهزة للسقوط. وبدأ النظام فيما كانت تتساقط عنه دول وارسو، كأنه جسد افترسه داء الجزام فطفقت جوارحه تتساقط واحدة واحدة خلافاً لنظريتي (فوكوبياما) و (هنتغتون) وكتابيهما: أن التاريخ لن يجمد على نظام اجتماعي (اقتصادي أو فلسفي) بل لن يكون أي نظام سوى محطة من المحطات، يقف فيها الإنسان زمناً يطول أو يقصر بمقدار جمود الظروف وحركتها لكي يتابع سيره إلى ما شاء الله.

إن النظام العولمي ورث عن أبيه أهم تناقضاته، ألا وهي الفروق الطبقية التي تتزايد عمقاً واتساعاً مع الأيام.

فسوف لن يصبر العالم طويلاً وهو يرى ٣٨٥ مليارديراً يملكون ثلاثة أرباع ثروة الكون. وتلك الأكثرية التي يتضخم عددها باستمرار منزوية تحت عتبة الفقر، تبيت لياليها في المجارير وتقضي أيامها بحثاً بين أكوام القمامة عما تسدُّ به الرمق.

تلك الكتلة التعيسة التي يزداد حجمها كل يوم هي بارود الثورة ضد نظام العولمة، الذي تكون أطماعه قد أوصلته إلى درجة الترنُّح وإذ ذاك يتأكد للجميع أن الاشتراكية لم تسقط، بل سقطت التجربة الخاطئة. وأن الإنسان يبقى باحثاً على الدوام عن النظام الذي يحقق له أكبر مقدار من العدالة.




يا تثنّي الريحان..

شعر: مدحة عكاش

قـــيلَ عنِّـــي: أهــوى الجمَــال واشـــدو
لمغانـــي الجمـــالِ مِـــنْ كــل فَـــنِّ
وعُيونـــي وقْـــفٌ علـــى كـــل حُـــسْنٍ
لا تَـــسَلْ عـــن مفـــاتنِ الحُـــسْنِ عينـــي
كـــم تغنَّـــيتُ لابتـــسامِ العَـــذارى
والغوانـــي، وكـــلِّ ظبْـــيٍ أغَـــنّ
وتغنَّــــــيْتُ للـــــــوردِ وللَّـــــــيلِ
وغنَّـــيتُ كـــلَّ ســـهلٍ وحَـــزْنِ
والعـــيونُ التـــي وَهَـــبْتُ لهـــا روحـــي
زمانـــــاً وعلَّمتنـــــي التغنِّـــــي

*　　　*　　　*

تلـــكَ أشـــياءُ عَهْـــدُها قـــد تقـــضَى
وطـــواها جمـــالُ وجهـــك عنِّـــي







أنــــا، مـــــذ داعــــبَتْ جفـــونُك آمالـــــي
حـــــرامٌ إنْ ضـــــمَّ غَيْــــرَكِ جفنـــــي

أنـــــت، يـــــا مــــنْ أيقظـــتِ أحلــــى أمانـــيَّ
فـــــتاهتْ بــــينَ الرِّضــــا والتَّجنّـــــي

وتــــــركت الفـــــؤادَ نـــــشوانَ هــــيمان
يُغنِّـــــيكِ ألــــــفَ لحــــــنٍ، ولحـــــنِ

أنـــتِ خمــري فـــي عــصفةِ الــيأسِ في القلب
وكأســـــــي – إذا أُديــــــرت – وَدَنِّـــــي

أنـــــت إنْ لُحْـــتِ فـــي مَطـــافِ خيالـــي
غِـــبْتُ عـــن خاطـــرِ الـــزمانِ، وعنّـــي

أنـــتِ، مـــا أنـــت غيـــرَ نفحـــة ألطـــاف
تهـــادَتْ، سَــكْرى فـــراديسِ عـــدْنِ

لـــكِ قلبـــي، وهـــلْ يُقَـــدَّمْ للحـــسناء
أحلـــى مـــن قلـــبِ صـــبٍّ يُغَنِّـــي

يـــا تَثَنِّـــي الـــرَّيْحانِ!! بعـــتُكِ روحـــي
طـــابَ مـــنكِ الهـــوى وطـــابَ التثنِّـــي

لـــكِ، للحُـــسْنِ، للجفـــونِ الكـــسالى
مـــا سَــيَروي الـــزمانُ عـــنكِ وعنِّـــي






دمشق أيام زمان

ذكريات وصور من دمشق

عن مجلة (كندا والعالم العربي) الغراء

بقلم: أ. عادل أبو شنب

رضعت وأنا في أشهري الأولى من أكثر من سيدة، فصار لي أكثر من أم وأخوة بالرضاعة. وأرضعت أمي من كانوا في مثل سني من بنات وأولاد الحارة، فصار هؤلاء اخوتي بالرضاعة، وصارت أمي أمهم بالرضاعة. كانت هذه العادة متبعة في دمشق أيام زمان. وكانت المرأة لا تعرف وسيلة للإرضاع سوى ثدييها، وكانت تحمل رضيعها في زيارتها إلى بيوت جيرانها وأقاربها ومعارفها، وكان يصدف أن يكون لجارتها رضيع في مثل عمر الرضيع الذي تحمله الزائرة، فكان الرضيعان يتبادلان أثداء الأمين، لسبب من الأسباب، ندرة الحليب مثلاً، أو لأن حليب إحداهما مقطوع، أو لانشغالها في تهيئة الضيافة. وما كان أسهل على الأم المرضعة من أن تترك رضيعها إلى جانبها وترضع ابن جارتها. وكثيراً ما رأيت نساء تضع الواحدة منهن ابنها على ثدي وابن جارتها على الثدي الآخر، وكانت هذه الرضاعة تؤدي إلى تآخي الرضيعين، وأحسب أن أسراً كثيرة في دمشق أيام زمان كانت منفتحة على بعضها بوساطة الرضاعة.

ونشأت وأنا أعرف أن لي أكثر من أم في الرضاعة، وأكثر من أخوة وأخوات. وكانت هذه القرابة تجيز لأصحابها أن يدخلوا بيوت مرضعاتهن وأبنائهن وبناتهن، وأن ينكشف حريم هؤلاء عليهم. وهكذا وجدت نفسي محاطاً بأقارب لا تربطني بهم صلة إلا صلة الرضاعة. وكان من الممكن ألا تقوم هذه الصلة لولا تلك الرضاعة العابرة التي رضعتها

من تلك الأم، أو تلك الرضعة التي رضعها ذلك الرضيع من أمي.

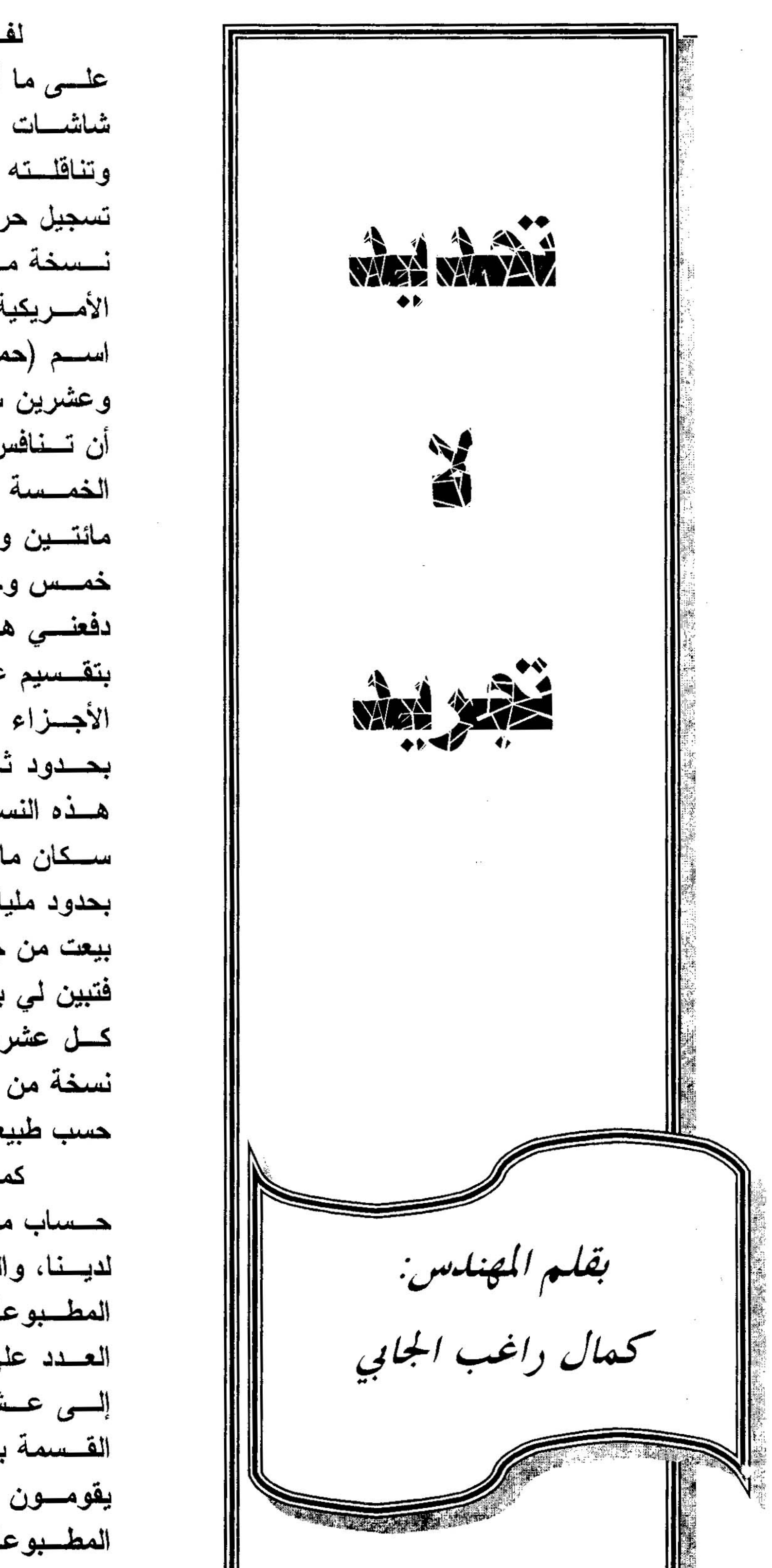
هل كان هذا التصرف مقصودا لتنفتح أسر دمشق على بعضها يومئذ..؟ ربما. ولكن قرابة الرضاعة كانت تمر بعقبات. كان بعض الرجال يشدد على نسائه المرضعات ألا يفعلن ذلك، أي لا يرضعن أطفالاً غير أطفالهن، ولو كان الرضيع المجلوب إلى بيوتهن محتاجاً إلى رضعة. وكانت بعض النسوة يرضعن أطفالاً بغير علم أزواجهن، مما يؤدي إلى مشاكل صعبة ومعقدة. فقد كان في العرف السائد أن قرابة الرضاعة تمنع التزاوج بين رضيع ورضيعة من ثدي واحد، بل كانت تمنع التزاوج بين أقاربه وأقاربها بنسبة معينة من القرابة. وسمعت كثيراً في سنواتي الأولى عن زواج تم بين شاب وفتاة فحدث نفور بينهما ثم تبين أن بينهما قرابة رضاعة، مما أدى إلى الطلاق.

وكان يقابل هذا الانفتاح بين الأسر الدمشقية بوساطة قرابة الرضاعة تزمت في انكشاف الحريم، أي النساء - بلغة ذلك الزمان - على الرجال، حتى ولو كانت القرابة الحقيقية قائمة.

وكان بعض أرباب الأسر يمنع الشابة في أسرته من لقاء ابن عمها وابن خالتها أو من في حكمهما في القرابة من الخروج سافرة أمامهم. وكان بعضهم يمنعها حتى من استقبالهم في البيت إن كانت وحيدة. على هذا، عشنا سنوات عمرنا الأولى، ورأينا كيف كانت الفتاة تتحجب أمام قريبها أو تختفي عن ناظريه إذا ما جاء في زيارة، لكنها كانت تسفر أمام شاب كانت القرابة بينهما ليست سوى قرابة الرضاعة. وكانت هذه من المتوارث في دمشق أيامنا الأولى.

كان الزواج محرماً بين الأخوة في الرضاعة في دمشق، وكانت تظهر عواقب مثل هذا الزواج إن تم دون معرفة بأن الزوجين أخوان في الرضاعة أو أن قرابتهما قائمة بسبب الرضاعة بين الأسرتين. ولكن من أسباب هذا الزواج في الأسرة عدم انفتاحها على الغرباء، وخاصة فيما يتعلق بالمال و"المالكانات" (العقارات)، أي خشية وصول مال الأسرة إلى الغريب. وكثيراً ما كان يتم الاتفاق على زواج ابنة العم من ابن عمها منذ الصغر وحتى منذ ولادتهما. كان هذا الزواج المقرر سلفاً مألوفاً في زماننا، وكثيراً ما كان طالب الزواج يواجه بكلمة حاسمة "البنت مربوطة لابن عمها أو ابن خالها" منذ الصغر. وكان هذا يعني أن زواجه منها مستحيل، وأن عليه البحث عن فتاة غير مربوطة بزواج مقرر سلفاً.

وفي زماننا، كانت المصاهرة تعني انفتاح أسرة الصهر على أسرة العم، أي والد الفتاة. لكن المصاهرة لم تسمح بانكشاف النساء على الرجال بين الأسرتين إلا في حدود القرابة الشديدة. فكانت أم العروس تسفر أمام صهرها، لكن أخواتها كان يظهرن أمامه بحجاب على الرأس، وأحياناً كان الظهور ممنوعاً عليهن.



لفت نظري، كما لفت نظر الكثيرين على ما أظن، خبر صغير ومثير، عرض على شاشات التلفاز، ونشر بين أخبار الصحف، وتناقلته باقي وسائل الأعلام.. أفاد بأنه تم تسجيل حركة مبيع ما يربو على عشرة ملايين نسخة من الجزء السادس من رواية الكاتبة الأمريكية (جوان كاتلين) والتي أطلقت عليها اسم (حمى هاري بوتر) وذلك خلال أربع وعشرين ساعة فقط من صدورها. وأنه يتوقع أن تنافس مبيعات هذا الجزء مبيعات الأجزاء الخمسة السابقة التي تجاوز ما بيع منها مائتين وخمس وسبعين مليون نسخة، بواقع خمس وخمسين مليون نسخة لكل جزء، ولقد دفعني هذا الخبر إلى إجراء حساب بسيط بتقسيم عدد النسخ المباعة من كل من هذه الأجزاء على مجموع الشعب الأميركي البالغ بحدود ثلاثمائة مليون نسمة والتي يعتقد أن هذه النسخ بيعت في أراضيه أو على مجموع سكان ما يطلق عليه اسم العالم الأول والبالغ بحدود مليار نسمة عند افتراض أن هذه النسخ بيعت من جميع دول هذا العالم وبدون استثناء. فتبين لي بأن كل ستة أفراد من هذا الشعب أو كل عشرين فرداً من هذا العالم قاموا باقتناء نسخة من ذلك الكتاب، وبالتالي قاموا بقراءتها حسب طبيعة الأمور.

كما دفعني الخبر نفسه إلى إجراء حساب مماثل على أغلب الكتب التي تطبع لدينا، والتي لا يزيد متوسط عدد النسخ المطبوعة منها عن ألف نسخة، بتقسيم هذا العدد على عدد المواطنين عندنا والذي يتجه إلى عشرين مليون نسمة، إذ يظهر بنتيجة القسمة بأن حوالي عشرين ألف شخص منهم يقومون بشراء نسخة من أي من الكتب المطبوعة عند افتراض بيع جميع ما طبع وقراءة كل من اشترى منها.

ولدى إضافة هذه الإحصائية الافتراضية الخاصة إلى الإحصائيات الفعلية العامة التي تشير إلى قلة عدد العناوين المطبوعة من الكتب بالموازنة بعدد السكان، حيث لا تتجاوز في العالم العربي بأجمعه عشرين عنواناً لكل ألف من مواطنيه بينما تصل إلى ضعف هذا العدد في القارة الأفريقية وإلى حوالي عشرين ضعفاً في القارتين الأوربية والأمريكية، لتبين لنا حجم المأساة المركبة التي يعاني منها عالمنا العربي والتي تعد في اعتقادنا السبب الرئيسي في تردي أوضاعه وتنامي أوجاعه.

ولعل الجذور البعيدة لضعف القراءة في العالم العربي الإسلامي تعود إلى سياسة التجهيل التي مورست على مواطنيه على مدار تاريخهم، والتي تميزت بالتناقض بين الشعار الذي رفعه أولو الأمر والمرتكز على الحديث النبوي الشريف بأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وعلى السنة النبوية الشريفة التي عمدت إلى الإجراء الحكيم القاضي بالربط بين رد الأسرى وبين قيامهم بتعليم بعض المسلمين في غزوة بدر وبين التطبيق العملي لهذا الشعار وذلك بحصر مفهوم العلم بالعلوم الدينية فقط. وبقيام بعض الفقهاء، وفقهاء السلطة منهم بالذات، بممارسته وكالة عن باقي المواطنين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بعدم استمرار جهود العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين العلوم الدينية المجردة والعلوم الحياتية المجسدة، والذين تتالى ظهورهم بشكل فردي. وبعدم تهيئة المهد المناسب للشق الحياتي العملي من علومهم عن طريق عدم التشجيع على إنشاء قواعد مؤسساتية تحمل لواءهم وتكمل مسيرتهم بعد أن طواهم الثرى.

ولقد أدى إهمال أسلافنا لحقهم كجماعة بالمطالبة بنصيبهم من هذه العلوم وإغفالهم لواجبهم بالتمسك بأذيالها وبخاصة خلال العصر الذهبي الذي لم يمر عليهم مرور الكرام. وإيغالهم في الانقياد إلى توجيهات معظم أولي الأمر التي أبعدتهم عن ما يفيدهم من علوم دينية ودنيوية وأبعدت هذه العلوم عنهم ليخلو لهؤلاء الأولياء الجو للتصرُّف بأحوالهم بالشكل الذي يحقق مصالحهم، أدى ذلك كله إلى وصولنا إلى درجة جعلت الأمة التي ننتسب إليها من أقل شعوب العالم علماً وتقانة، كنتيجة حتمية لجعلها من أقلها بحثاً وقراءة، كما تشير إليه الإحصائيات الصادرة عن الجهات المختصة والمترجمة لواقع الحال لدينا والتي تبين بوضوح بأننا لا زلنا نعاني وبشدة من الأمية اللغوية في عصر تمكنت فيه كثير من شعوب العالم من التغلب على الأمية الإلكترونية، رغم حداثة القراءة الإلكترونية وقدم القراءة الورقية والتي كان لنا قصب السبق في جعلها أساس المعرفة وركيزتها بابتكارنا الأحرف الأبجدية منذ فجر التاريخ.

ولما كنا على قناعة أكيدة بأن تقديم الحلول المناسبة للمشاكل التي نعاني منها هو الجزء الأهم في معالجة هذه المشاكل من قبل كل من يتعرض لها من المفكرين. حتى يجد أولو الأمر من ناحية، ومن يعاني من هذه المشاكل من ناحية أخرى بدائل مختلفة ليختاروا منها الأنسب والأفضل والأجدى لمعالجتها، وذلك لإيماننا العميق بمقولة الأدب للحياة وليس الأدب للأدب، وتسليمنا الأكيد أن الأدب من أهم مفرزات الفكر ومن أشد الأدوات التي يتعامل بها تأثيراً في الآخرين. وأنه كالعلم هدفه إيجاد الحلول لقضايا الإنسان، وبخاصة وأننا نمر بمرحلة حضارية حرجة تتطلب بعث الإمكانيات القادرة على التطوير

والتغير. ونشر التفاؤل المقرون بتبيان وسائل الخلاص وليس التشاؤم المصحوب بإطلاق الرصاص واعتباره وسيلة للقصاص.

من وحي هذه القناعة والإيمان الكامن وراءها فأننا نعيد هنا ما سبق أن أوردناه في مداخلة على ما ألقاه واحد من كبار أدبائنا في إحدى الأمسيات التي أعدتها دار المدى منذ عدة سنوات علقنا فيها على بعض العبارات التي وردت في بعض آثاره والتي قال فيها بأنه لم يستطع أن يغير شيئاً عن طريق كتاباته، وأن الكتاب والمفكرين لدينا لا يزالون يجلسون على مقاعد خلفية في قاعة الحياة بينما الحدادون والنجارون والحرفيون يجلسون في مقاعد أمامية منها، بقولنا أن هذه الفئة الأخيرة من المهنيين تستحق المقاعد التي تجلس عليها لأنها تقدم عملاً منتجاً رغم مغالاتها في كثير من الحالات في تقاضي مقابل هذا العمل. بينما أغلب أفراد الفئة الأولى يغالون في طلب مقابل للأعمال غير المنتجة التي يقومون فيها والتي تكتفي في معظم الأحوال بالعرض والتحليل وباللوم والتقريع، وبالتجريد وليس بالتحديد دون أن تبيِّن الوسائل العملية الكفيلة بإخراجنا من التيه الذي نغرق فيه ومن تبديد العتمة التي تحيط بنا من كل جانب.. ولم تكن إجابة الكاتب الكبير التي أوجزها بعبارة (أنا هيك) مقنعة لنا بهذا الخصوص. كما لم تكن إجابة مدير الدار الذي يجلس بجواره على المنصة مقنعة لنا أيضاً عندما قال بأن الكاتب ليس زعيماً لحزب وإنما هو حامل قلم فقط.

ونعود إلى موضوع ضعف القراءة لدينا لنقول بأن هذا الواقع الأليم يدفعنا، ومن منطلق التحفيز وعدم التيئيس، ليس إلى إدانة ممارسات الأقدمين فقط الذين لم يقوموا بقوننة التعاليم السماوية التي أقرت بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، والتعاليم النبوية التي جعلت العلم فريضة على جميع المؤمنين، وليس إلى شمل المحدثين بهذه الإدانة لكونهم لا يأخذون هذه التعاليم مأخذ الجد، بل إلى طرح بعض الأفكار التي قد تكون مفيدة في تشجيع المواطنين على القراءة في ظل الواقع الذي نعيشه ووقائعه التي تحيط بنا والذين يؤكدان معاً بأن توصيف أمراضنا الاجتماعية والتنديد بها، والتوجيه والإرشاد إلى أخطارها لا تؤدي جميعها الأغراض المرجوة منها. بدليل الأمية الثقافية السائدة لدى أغلب المواطنين والتي قد تكون سبباً ونتيجة في الوقت نفسه لمستواهم المعاشي المتدني والذي ينعكس على دخول فئة كبيرة منهم لا تتمكن من تخصيص جزء ملحوظ من مواردها لشراء الكتب وباقي مصادر المعرفة بسبب اضطرارها إلى توجيهه لمناحٍ أخرى إذ إن الملاحظ بأن اغلب الذين يملكون في المجتمعات العربية لا يقرؤون، وأغلب الذين يرغبون في القراءة لا يملكون ثمن الكتب التي يودون قراءتها.

وترتكز الأفكار التي نقدمها بهذا الخصوص بالدعوة لأن يجري ربط ترفيع الموظفين المرتبي والراتبي في القطاع العام بإجراء امتحان خطي وشفوي سنوي لهم في خمسة كتب صدرت في السنة المعنية نفسها. ثلاثة منها تتعلق بمواضيع التخصص الذي يمارسونه والذي سيجرى ترفيعهم إليه. والاثنين الباقيين في مواضيع حياتية عامة يجرى تحديدها وتسمية الكتب الخاصة بها من قبل الموظف صاحب العلاقة ويجري شراؤها وتحمل قيمتها من قبل الإدارة التي يتبع لها.

كما تنسحب هذه الأفكار على العاملين في القطاع الخاص وذلك بأن يجري ربط منح التراخيص اللازمة لممارسة مختلف الأعمال

الخاصة أو تجديدها، وربط الدخول في المناقصات والمزايدات والحصول على إجازات الاستيراد والتصدير وغيرها من الرخص والتراخيص الرسمية المتعلقة بممارسة فعاليات هذا القطاع بإجراء امتحانات خطية وشفوية لأفراده في خمسة كتب يجري تحديدها واختيارها من قبلهم بالأسلوب نفسه والمقترح إتباعه في القطاع العام، وبشكل يتناسب مع درجة تحصيلهم العلمي والمعرفي. وقد تكون هذه الكتب في محو الأمية لمن يعاني منها وتتدرَّج بارتفاع مستوى وتقدم معارف الآخرين. مع تحمل أصحاب الفعاليات في هذا القطاع قيمة هذه الكتب لأنفسهم وتحمل أسعارها بالنسبة للعاملين لديهم وإخضاعهم معاً كنظرائهم في القطاع العام إلى اختبار سنوي تتحمل أعباء أجرائه الجهة المعنية بالتحسين المعرفي والتي يمكن إحداث إدارات خاصة بها في المراكز الثقافية يوكل إليها أمر القيام به بعد التعاون مع الجهات ذات الاختصاص في وزارات الدولة وإداراتها فيما يتعلق بالاختبارات التخصصية، كما يمكن، بل ينبغي، أحداث إدارات لتجميع الأفكار الحديثة في هذه المراكز لتجميع الأفكار التي تتضمنها المحاضرات التي تلقى في قاعاتها والمداخلات التي تدور بين جنباتها وتقديمها للسلطات المخولة بصنع القرار للاستفادة منها في هذا المجال.

وقد يكون مناسبا في هذا السياق دمج هذا الموضوع في النظام الضرائبي وفيما يختص بضريبة (الرفاه) تحديداً بعد استبدال اسمها غير المحبب باسم ضريبة (التشجيع على القراءة). لأنه يبدو من اسم هذه الضريبة الحالي بأن المجتمع هو ضد رفاهية أفراده وأنه يقوم بفرض ضريبة عليهم بسبب ذلك، وذلك أكثر مما يبدو بأن الغرض الرئيسي من فرضها هو إشراك القادرين في الإسهام بموارد الدولة وإعفاء غير القادرين منه. بينما واقع الأمر أن الضريبة التصاعدية لم توجد إلا لتحقيق هذا الغرض وأن حسن تطبيق القوانين الناظمة لها كفيل بالوصول إلى الأهداف المرجوة منها.. حيث يمكن عند تغيير اسم هذه الضريبة، إضافةً إلى عدم إثارة الحساسية عند فئة من المواطنين القيام بتحصيل مبالغ مقاربة بربط النسب التي سيجري تحصيلها منها بالدرجات التي يحصل الأفراد الذين سيجري اختبارهم في الكتب التي يطلب منهم قراءتها وبزيادة مقدارها في حال عدم نجاحهم أو حصولهم على درجات متدنية فيها..

قد ترتسم البسمة على شفاه بعض من يقومون بقراءة هذه الفكرة أو مجرد سماعها من الآخرين معتبرين إياها فكرة خيالية غير قابلة للتطبيق. لكننا على ثقة تامة بأنه ينبغي النظر إلى أية فكرة يجرى طرحها على ضوء النتائج المتوخاة منها أكثر من النظر إليها من منظار الصعوبات التي قد تعترض تطبيقها. كما ينبغي الأخذ بعين الاعتبار بأن المجتمعات المتقدمة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلاَّ عن طريق قيامها بتنفيذ أفكار كانت تبدو خيالية في وقت من الأوقات لكن الواقع أثبت بطلان ذلك مما حدا بهذه المجتمعات إلى تبني الأفكار البناءة حتى لو كانت مغرقة في غرابتها كفكرة فتح خطوط اتصال مباشرة بين وكالة الفضاء الأمريكية وبين الأطفال تتلقى عن طريقها أفكارهم وتصوراتهم الخامة غير المرتبطة بمعارف مسبقة أو المشوبه بتعقيدات الحياة وتقوم بالتحاور معهم حولها وتعمد إلى تفحص مفرداتها والإفادة منها..

ولعل خير ما نختتم به هذا الحديث المقتضب ما جعلته دار الأوائل للنشر والتوزيع شعاراً لأحد الكتب القيمة التي تصدرها والذي ينص (قرؤوا ووصلوا فلنقرأ حتى نصل)..




رجلٌ في الذاكرة..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

مُشْكلتي معكَ، لا علاقةَ لها بقلبي
بل بذاكرتي..
هذه الذاكرةُ التي تحتلُّها احتلالاً قَسْريّاً
منذُ مئةِ عامْ..
دُونَ رضايَ..
ودُونَ إرادتي..
ودُونَ أن يكونَ معكَ عَقْدٌ للإيجار..

-٢-

منذُ مئةِ عام..
وأنتَ تعيشُ في ذاكرتي
كما لو كانتْ شَقَّتَكَ الخُصُوصيَّةْ
تتمدَّدُ على وسائدها متى تشاءْ..
وتُعلّقُ ثيابكَ في خزائنها متى تشاءْ..
وتأخُذُ قيلولتكَ فيها حين تشاءْ..
وتستعملُ ثلاّجتَها..
وتصنعُ قهوتَكَ حينَ تشاءْ..

-٣-

منذُ مئةِ عام..
وأنت مُعْرِبَشٌ كحشائشِ البحرْ
على شواطئِ ذاكرتي
أطلبُ منكَ الهجرةَ.. فلا تُهاجرْ
وأشتري لكَ بطاقةَ سفرٍ.. فلا تسافرْ
وأُغلق حقائبكَ.. فتفتَحها من جديدْ..
وأطلبُ من البوليس أن يُلقي القبض
عليكْ..
فيُلقي القبضَ عليّ..

-٤-

منذُ مئةِ عامْ..
وذاكرتي لا تتذكَّرُ رَجُلاً غيركْ..
ولا تعرفُ من التاريخ، غير تاريخكْ
ولا تعرفُ من الجغرافيا، غيرَ مساحةِ
يديكْ..
ولا تعرفُ من الثقافة.. سوى كلماتِ
الحبِّ
التي تكتُبُها على قميصي..

-٥-

منذُ مئةِ عامْ..
وأنا أحاولُ أن أكسرَ دائرةَ الطباشيرْ
التي حبَسْتَني فيها..
وخبّأتَ مفاتيحَها في جَيْبِكْ..
منذُ مئةِ عامْ..
وأنا أحاولُ أن أقنعَكَ باحترامِ حقوقِ
الإنسانْ
وحقوقِ الأُنوثَةْ..







ولكنَّكَ.. ككُلِّ ذُكور القبيلَةْ..
بقيتَ مُصِرّاً على الاحتفاظ بممتلكاتكْ..
التي لا يغيبُ عنها الشمسْ..
وبقيتَ رافعاً أعلامكَ الحمراء
فوق أسوار ذاكرتي..

-٦-

أيُّها الجالسُ ملكاً فوقَ عَرْش ذاكرتي
حَرِّرني ولو ليومٍ واحد من سُلْطانكْ
فكلُّ شارعٍ أمشي فيه.. يحملُ اسمَكْ..
وكل مقهى ألجأُ إليه.. يرفُضُني
وحدي..
وكلُّ حديقةٍ عامةٍ تُقْفلُ أبوابَها في
وجهي..
وكلُّ البوتيكات التي أشتري منها ثيابي
لا تبيعُني شيئاً.. قبلَ أن أستشيركْ..
فاخْرُجْ من تحت جلْدي
حتى أعيشَ حياتي بصورةٍ طبيعيَّةْ..
وأتنفسَ بصورةٍ طبيعيَّةْ

-٧-

إنّني أحملُكَ في داخلي
كامرأة في شهرها التاسعْ..
فكيفَ أتخلَّصُ منكْ؟
كيفَ أقطعُ حبْلَ مشيمتي معَكْ
وأنت مُشْتَبكٌ ككُرة الصّوفْ
بأحلامي، ورغباتي، وجهازي
العصبيَ؟
كيفَ أتركُكَ على قارعةِ الطريق
تحت الثلج والمطر،
والأعاصيرْ..
وأنت أوّلُ طفل ولدتُهْ..
وآخرُ طفل سوفَ ألدُهْ..؟

-٨-

لقد سقَطَ جدارُ برلين، يا سيِّدي
وسقطتْ حجارةُ العالم القديمْ
وتحرَّرتْ جنوبُ إفريقيا
من حكم الرّجُل الأبيضْ..
بعد ثلاثمئة عامْ..
فلماذا، يا أيُّها الرجُلُ الأبيضْ
تواصلُ احتلالْ ذاكرتي؟
لماذا تزرعُ الألغام في ذاكرتي؟
والحرائقَ تحت مخدّتي؟

-٩-

كيف أقتلعُكَ من ذاكرتي
وأنت متشبّثٌ بها
كما تتشبَّثُ الشُعَبُ المرجانيّةْ
بصخورِ البحر الأحمر..؟

-١٠-

يا أيُها المستأجرُ الأبديُّ لمشاعري
اذهبْ إلى أيِّ فندقٍ تشاءْ..
وأنا سأدفعُ أجرةَ إقامتكْ..
ادخلْ إلى أيِّ مقهى تختارُه..
وأنا سأدفعُ ثمنَ قهوتكْ..
تزوّجْ من أيّة امرأة تعجبُكْ
وأنا سأدفعُ لك المَهرْ!!!






لقد ظهرت عوامل النهضة في زمن محمد علي باشا سنة ١٨٤٩، ومن بوادر هذه النهضة إرسال البعثات إلى مختلف البلاد الأوربية للتبحر في العلوم والفنون، ثم قاموا بتأسيس مدارس وجامعات، ثم توالت الترجمة في العلوم والفنون إضافة إلى التأليف، كما ونشطت الطباعة وتأسست الجمعيات العلمية والأدبية والمكتبات في كل من لبنان وسوريا ومصر والعراق وبعض البلاد العربية الأخرى. كما واشترك الأجانب بفتح مدارس لتعليم اللغات مما أدى إلى تنشيط حركة الاستشراق، ومن أشهر المستشرقين:

- بروكلمن.
- دي سلان.
- دوزي.
- دي غويه.
- لويس مسينيون.
- مرغيلوث.

هذه هي أهم العوامل التي ساعدت على بزوغ النهضة الحديثة.

ومن هذا نلاحظ أنه قويت أغراض النثر الأدبي والاجتماعي والسياسي وكذلك الخطابة، كما وأن القصة تطورت، وترجمت بعض القصص غير العربية، إضافة إلى نشاط نواحي الإنتاج الأدبي كالنقد وتأليف الروايات، ومن الأدباء الذين برزوا: جميل صدقي الزهاوي.

شاعر بغدادي، ولد من أبوين كرديين عام ١٨٦٣، تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب.

درس آداب اللغة الفارسية والتركية إلى جانب العربية، وأحرز كثيراً من العلوم والفنون، وتعمق في علم التوحيد والفقه الإسلامي والمنطق والفلسفة والتصوف.

عُيِّنَ أستاذاً للقانون في كلية الحقوق.

الزهاوي كان (بطلاً من أبطال النهضة). (كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة)، ثم يقضي الليل ساهداً يقرأ أو ذاهلاً ينظم، فالقصص والمجلات منتشرة على

سـريره وعلى مقعده، والأوراق تحت وسادته أو فـي ثـيابه، ويقـول: "انظروا كيف أذيب عمـري فـي شـعري، إني سأذهب وستبقى أشـعاري معبـرة عن شعوري وناطقة بآلامي فهي دموع ذرفتها على الطرس".

مؤلفاته:

- ديوان الكلم المنظوم.
- ديوان بعد الدستور.
- ديوان هواجس النفس.
- ديوان بقايا الشفق.
- رباعيات الزهاوي.
- ديوان الشذرات.
- ديوان نزعات الشيطان.
- عيون الشعر.
- الكائنات.
- الجاذبية وتعليلها.
- الدفع العام والظواهر الطبيعية والفلكية.
- محاضرة في الشعر.
- الفجر الصادق في الرد على الوهابية.
- رسالة اشراك الداما.
- حكمت إسلامية درسلري، تركي.
- الخيل وسباقها.
- الأوشال.
- ليلى وسميرة، رواية.
- اللباب، ديوان شعر.
- ثورة في الجحيم.
- ديوان جميل صدقي الزهاوي.

نظـم الـزهاوي الـشعر بالعـربية والفارسـية وهـو صـبي، وأجاد فيهما. إذن (فالـشعر رسالة الطبيعة على لسان أحد بنيها إلى أبنائها).

ومما نظمه في رسالة الشعر قوله:

ما الشعر إلا شعوري جئت أعرضه

فانقـده نقـداً شريفاً غير ذي خلل

الـشعر مـا عاش دهراً بعد قائله

وسـائر يجري على الأفواه كالمثل

والـشعر ما اهتز منه روح سامعه

كمـن تكهـرب من سلك على غفل

عـندما أراد الـزهاوي العـودة مـن الآسـتانة إلـى وطنه لم يسمح لـه السلطان بالعودة فنظم الزهاوي قصيدة حادة واستمر في ذمـه للسلطان وسياسته فأمر السلطان بسجنه ونفيه، ومما جاء في قصيدته والتي تبين مدى جرأة الشاعر حين يقول:

نهى الله عنه والرسول المبجل

ففقر ذا مال وينفي مبرا

ويسجن مظلوما ويسبي ويقتل

تمهل قليلاً لا تغظ إنه إذا

تحرك فيها الغيظ لا تتمهل

وأيديك إن طالت فلا تغتر بها

فإن يد الأيام منهن أطول

كـان الزهاوي جريئا بطبعه وطموحاً وجلـداً فـي مـواقفه، فعندما رأى أن الحكّام يلقـون الأحـرار مغلولـين في غيابة السجن وتنفـيذ أحكام الإعدام بهم والقسم الآخر يُرمى بهـم فـي قـاع البحر فنظم قصيدة في تحية الشهداء:

علـى كـل عـود صـاحب وخليل

وفـي كـل بـيت رنـة وعـويل

وفـي كـل عـين عبـرة مهراقة

وفـي كـل قلـب حـسرة وعلـيل

كـان الجـدوع القائمـات منابـر

علـت خطـباء عـودهن نقـول

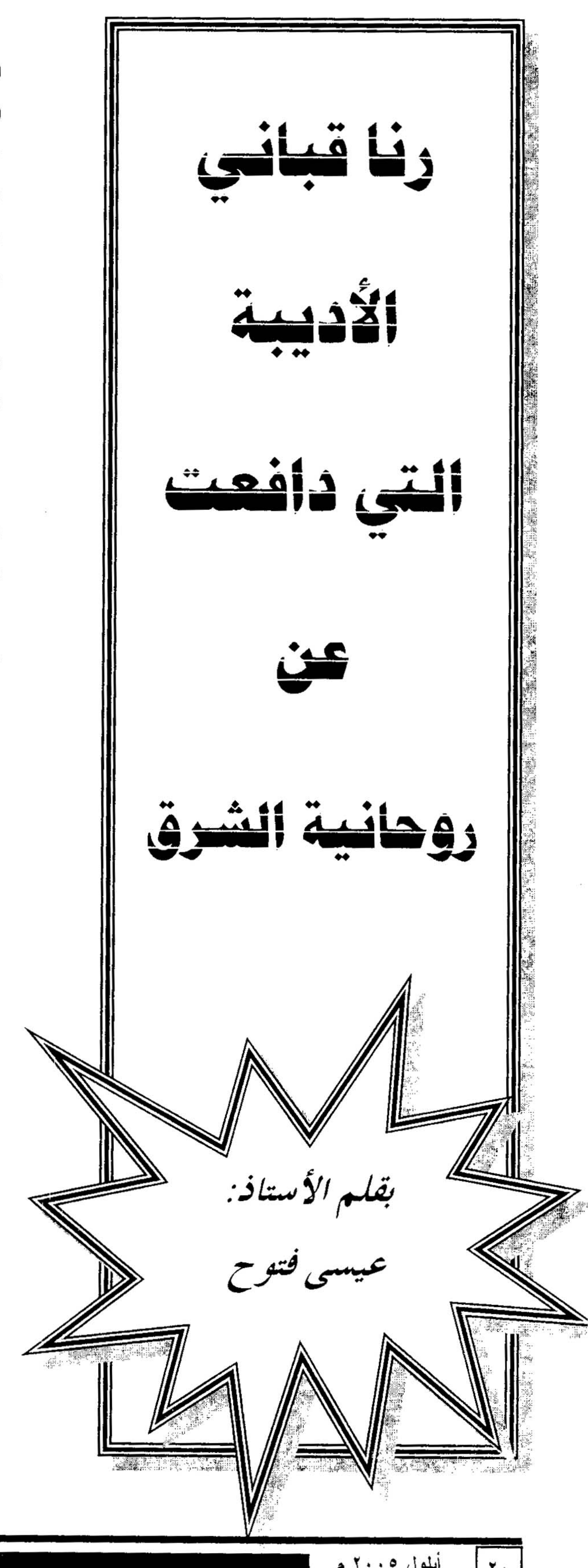
سـتبكي علـى تلك الوجوه منازل

وتبكـي ربـوع للعلـى وطلـول

ومـا هـي إلا رجفة تعتري الفتى

مفاجـأة والـرأس مـنه يمـيل

انطفـأت شـعلة حياة هذا الشاعر في سنة ١٩٣٦.



رنا قباني الأديبة التي دافعت عن روحانية الشرق

بقلم الأستاذ: عيسى فتوح

الدكتورة رنا صباح قباني أديبة وشاعرة وباحثة وإعلامية سورية جريئة.. ولدت عام ١٩٥٨ في دمشق، في بيئة محافظة على قيم التربية الإسلامية، ومنفتحة على قيم الغرب الفكرية، وأسرة عريقة أنجبت عددا من الكتاب والفنانين والشعراء والسياسيين، فجدها الأكبر هو أحمد أبو خليل القباني (١٨٣٣-١٩٠٣) مبدع المسرح الغنائي العربي في مصر والشام، وعمها هو الشاعر الكبير نزار قباني (١٩٢٣- ١٩٩٨) ووالدها هو الدبلوماسي الدكتور صباح قباني مؤسس التلفزيون السوري عام ١٩٦٠، وأحد مؤسسي الإذاعة السورية ووزارة الثقافة، وسفير سابق لسورية في الولايات المتحدة الأمريكية، وجدها لأبيها هو الوطني المعروف والصناعي الشهير توفيق القباني، أما والدتها فهي السيدة مها النعماني ابنة السيدة سلوى الغزي المتحدرة من أعرق وأقدم العائلات الدمشقية والتي كان منها فوزي الغزي (واضع أول دستور سوري عام ١٩٢٨) وسعيد الغزي الذي تقلد رئاسة الوزراء أكثر من مرة.

وقد تأثرت رنا كثيراً بشخصية جدتها سلوى التي كانت من أوائل النساء الرائدات في العمل السياسي والنهضوي فهي من مؤسسات (جمعية يقظة المرأة الشامية) خلال الحكم الفيصلي كما كانت إحدى الموقعات على النداء الوطني الشهير الذي وجهته نساء الجمعية لحث الرجال السوريين على صد الجيش الفرنسي الزاحف نحو دمشق لإسقاط فيصل والملكية العربية الوليدة ومباشرة انتداب فرنسا على سورية.

تلقت دراستها الابتدائية في نيويورك، حيث تفتحت موهبتها الشعرية وهي في السابعة، والإعدادية والثانوية في دمشق، ثم التحقت بجامعة (جورج تاون) في واشنطن،

حيث نالت شهادتي البكالوريوس والماجستير بدرجة شرف، ثم انتسبت إلى جامعة كمبردج في بريطانيا، وحصلت على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والآداب الإنكليزية عام ١٩٨٦ بأطروحة عنوانها (أساطير أوروبا عن الشرق - لفِقْ تسدْ).

تزوجت عام ١٩٨٠ من الشاعر الفلسطيني محمود درويش، لكن هذا الزواج لم يستمر طويلاً، ثم تزوجت من الكاتب السياسي الإنكليزي (باتريك سيل) وأنجبت منه ولدين، وهي تقيم الآن مع زوجها وولديها في باريس، لكنها تزور مسقط رأسها في دمشق من حين لآخر، لتستعيد ذكريات طفولتها فيها.

آثارها الأدبية

١- الطريق إليك The Road to you (شعر باللغة الإنكليزية) صدر عام ١٩٧٣ وكان عمرها خمس عشرة سنة.
٢- أساطير أوروبا عن الشرق - دار ماكميلان - بريطانيا ١٩٨٦ ودار طلاس (بالعربية) دمشق ١٩٨٨.
٣- رسالة إلى الغرب - دار الآداب - بيروت ١٩٩١، ودار الأهالي - دمشق عام ٢٠٠٠.

* * *

كان كتاب (أساطير أوروبا عن الشرق - لفِّقْ تسد) هو الكتاب الثاني الذي أصدرته الدكتورة رنا قباني بعد ديوانها (الطريق إليك) وقد صححت فيه الصورة المشوهة التي رسمها الرحالة والمغامرون الأوروبيون أمثال ريتشارد بيرتون وتوماس لورنس (١٨٨٨-١٩٣٥) عن الشرق والغرب والإسلام، إذ أدركت أن معظم الصور التي أعطيت عن العالم العربي والإسلامي صاغها جميعاً تراث أدبي وفني ازدهر في ظل رعاية الإمبريالية، وأن الثقافة كانت مرتبطة بالاستعمار الغربي ارتباطاً وثيقاً.

لقد صور الكتّاب والرسامون الأوروبيون الشرق العربي والإسلامي في كتبهم بأنه بؤرة للعنف والجنس والكسل والتعصب.. وبأن أهله غير مؤهلين لحكم أنفسهم، فكأنهم بذلك مهدوا الطريق - ولو بصورة غير مباشرة - أمام مجيء جيوش أوروبا وموظفيها الاستعماريين، وكانت صورة النساء الشرقيات بالذات في كتابات برتون الإباحية من صنع الخيال الأوروبي، ولا تمت بصلة إلى الحقيقة والواقع، كما أنها كانت تخدم أغراضاً سياسية بحتة.

لقد كشف هذا الكتاب للقارئ الغربي صورة ازدراء الكتاب الغربيين وتحقيرهم رجال الشرق ونساءه، وكيف أن الكتّاب والرسامين والمصورين الاستشراقيين لم يروا في المرأة الشرقية سوى أنها بعض من متاع امبراطوريتهم، فهي عندهم إما جارية أو محظية، أو راقصة أو مومس أو قاتلة أو غاوية ولا شيء غير ذلك.

كما حظي باهتمام واسع في أرجاء أوروبا وأميركا، وترجم إلى عدد كبير من اللغات العالمية، وقرظه نقاد كثيرون في بريطانيا وأميركا، فقد قالت الناقدة الأميركية (ديبورا ميسن) في جريدة نيويورك تايمز: "لقد بينت الدكتورة رنا قباني أن محصلة كتابات الرحالين الاستشراقيين هي تأكيد للتحامل الغربي، وتخليد للصورة التي لفّقتها أوروبا عن الشرق".

وكتب (آصف حسين) في مجلة (الدراسات الإسلامية) التي تصدر في لندن: "إن أهمية هذا الكتاب تأتي لا من مجرد فضحه لأساطير الأوروبيين عن الشرق، بل أيضاً من

أنه يزوّد القارئ بدروس من الماضي لتكون عبرة للمستقبل، فالغرب لم يتوقف قط عن اختراع الأساطير، وعندما تبرز كاتبة مثل رنا قباني لتتصدى لها، فإن ما كتبته يجب أن يصبح قدوة لكل من يقاوم موجة الأساطير الجديدة".

وكتبت الناقدة (آنجيلا كارتر) في جريدة (الغارديان) اللندنية: "إن رنا قباني استطاعت كامرأة عربية ذات حجة قوية، أن تسقط الأقنعة عن وجوه الكتاب الغربيين الاستشراقيين الذين كانوا في نظر مواطنيهم أنصاف آلهة".

وكتب (بيتر كونراد) في جريدة (الأوبزرفر) البريطانية: "إن رنا قباني المولودة في دمشق أخذت على عاتقها إنقاذ الشرق العربي والإسلامي مما لحق بهما من ازدراء غربي على مدى قرون عديدة، ولا شك أنها في غضبتها العارمة التي تغلي في كل سطر من سطور كتابها كانت على حق تماماً".

أما كتابها الثاني (رسالة إلى الغرب) الذي أصدرته دار (فيراغو) للنشر في لندن عام ١٩٨٨، فقد تابعت فيه حديثها عن استمرار الرؤية الغربية المشوهة للعرب والإسلام هذه الرؤية التي ظهرت علناً بعد صدور كتاب (آيات شيطانية) لسلمان رشدي، فقد بين دفاع بعض الكتاب الغربيين عنه، أن عداوة الغرب للشرق لم تتم فصولاً، وأن سيوف حروب الفرنجة لا تزال مشهرة في وجوهنا، مثلما كانت عليه في القرون الماضية.

لقد اهتمت دور النشر العالمية بهذا الكتاب الجديد، فترجم إلى اللغات الألمانية، والدانماركية، والهولندية، والتركية، والعربية، وحين ترجمه والدها الدكتور صباح قباني إلى اللغة العربية، وصدر عن دار الآداب في بيروت عام ١٩٩١، ودار الأهالي بدمشق عام ٢٠٠٠، توالت تعليقات النقاد على الكتابين والإشادة بهما في عشرات المقالات في الصحف والمجلات السورية والعربية، فقد كتب الشاعر بلند الحيدري (١٩٢٦- ١٩٩٦) عن كتاب (أساطير أوروبا عن الشرق) قائلاً: "إنه بمثابة ممر لعودتنا إلى محاكمة التاريخ الذي كتبه المنتصر الأوروبي، وكان شاهد الزور عليه أيضاً، ليكون له وحده الحق في أن يصنّفنا شعوباً وأمماً وشيعاً حسبما يريد لنا أن نكون، فالكتاب هو رد بالوقائع على افتراء الغرب على تاريخنا، وهو جهد متميز، وتذكير للمؤسسات الثقافية العربية بمدى تقصيرها في هذا المجال، ومدى ما عليها الآن بعد أن اتسعت للتزييف مجالات أوسع وأخطر، عبر السينما والتلفزيون والفضائيات، والتي تستوجب رصداً مستمراً ويقظاً".

وقالت الأديبة غادة السمان: "إن دراسة رنا الرصينة العميقة، نموذج جميل لوعي المرأة العربية، وقدرتها على الإبداع في الحقول كلها. إن رنا العاشقة الدمشقية للحقيقة، استطاعت أن تمنح المكتبة العالمية والعربية عملاً هاماً يلقي الأضواء على جذور سوء التفاهم بيننا وبين الغرب، ويسهم في إيجاد الدرب العملية للقاء إنساني عادل ومثمر".

ومن أهم الأبحاث النقدية التي كتبت عن الكتابين، ونشرتها الصحف السورية والعربية، تلك التي كتبها الأدباء: سعد القاسم، والدكتور محمد الحبش، وأحمد كمال حمدي، وحمدية خلف، ونجاة قصاب حسن، وعادل أبو شنب، وعلي القيّم، وقمر الزمان علوش، ومصباح الغفري، وكلود سابا، ورينيه الحايك، ومحسنة الخطيب، وصبحي سعيد وغيرهم.

منذ أن استقرت الدكتورة رنا قباني في لندن، أخذت تمارس الكتابة الثقافية والسياسية في أهم الصحف والمجلات البريطانية التي تكلفها باستمرار بمراجعة الكتب الحديثة ذات العلاقة بالتاريخ العربي والإسلامي أو التي تتناول الجوانب السياسية في قضايا الشرق الأوسط، ومن أبرز الصحف التي تكتب فيها: التايمز، الغارديان، الإندباندت والأوبزرفر، والهيرالد تريبيون، والديلي تلغراف، ونيوستيتمان".. وتكتب من حين لآخر في بعض الصحف العربية التي تصدر من لندن مثل: "الحياة" و "الوسط" وغيرهما...

كما تستضيفها باستمرار محطات الإذاعة والتلفزيون المحلية والفضائية مثل B.B.C و C.N.N للمشاركة في الحوارات والمناقشات التي تجريها، وغالباً ما تدعوها هذه المحطات للحضور إلى ستوديو الأخبار فيها، ليحاورها مذيع النشرة الإخبارية، ويطلب منها التعليق على خبر جديد، أو تطور حدث في المنطقة العربية، أو في بلدها الأم سورية. وبالطبع فإن جميع تعليقاتها تنطلق من رؤيتها القومية العربية، بهدف تصحيح المغالطات التي تكون قد وردت في طيّات الخبر المذاع.

لقد كلفها التلفزيون البريطاني بإعداد وتقديم مجموعة من البرامج الوثائقية، كان من أهمها (توق إلى الإيمان) الذي تناولت في حلقاته الأربع أوضاع الجالية الإسلامية في بريطانيا، كما طلب منها التلفزيون المذكور عام ١٩٩٥ الذهاب مع فريق تلفزيوني إلى سورية، لإعداد برنامج عن الجولان المحتل، وبالفعل جاءت إلى سورية وقامت بتغطية قضية الجولان من المنظور السوري وأجرت حوارات مع الذين شرّدهم العدوان الإسرائيلي، بعد أن دمر بيوتهم في الهضبة، واحتل أراضيهم، واستفاضت في الحديث عما تعرضوا له من مظالم، وأبرزت إصرارهم على العودة إلى ديارهم، مهما طال أمد الاحتلال الإسرائيلي.. وقد أحدث البرنامج ضجة كبيرة في بريطانيا وإسرائيل لدى عرضه على الشاشات البريطانية يوم ١٩٩٥/٥/٢٨، لأنه قلب الصورة التي كانت وسائل الإعلام تحاول رسمها عن الجولان من وجهة النظر الإسرائيلية، وقد نشرت جريدة (جيروساليم بوست) الإسرائيلية مقالاً بقلم دافيد بار إيلان بتاريخ ١٩٩٥/٦/٩، وافتتاحية بتاريخ ١٨/٦/ ١٩٩٥ هاجمتا فيهما الدكتورة رنا وهيئة الإذاعة البريطانية، واتهمتهما بأنها: "عرضت برنامجاً دعائياً سورياً، قدمته قباني بلغة عاطفية، تهدف إلى استمالة المشاهدين وإقناعهم بالموقف السوري في الجولان".

لقد عكس هذا البرنامج موقفها المبدئي الذي إلتزمته في جميع مقالاتها ومحاضراتها وكتبها، القائم على التمسك بجذورها العربية والإسلامية، والتصدي لكل ما من شأنه أن يسيء إلى تراثنا القومي بالافتراء أو التجني أو التلفيق أو الدس.

ومن المعروف أن رنا تزود بمشورتها فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية ولي العهد البريطاني الأمير (تشارلز) الذي اعتمد على كثير من الأفكار التي زودته بها في خطابيه الشهيرين اللذين ألقاهما عن (الإسلام والغرب) في مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية في ١٩٩٣/٣/٢٧ وعن (بناء الجسور بين الإسلام والغرب) في (ويلتون بارك) في ١٣/١٢/ ١٩٩٦.




الدروب تهرب أحياناً..

شعر الدكتور: عمر النص

لا تَسَلْها لمَ ينأى الأفُقُ
الرؤى عُمّيت فأين الطُرُقُ

هاجرَ الصيفُ فهل من غابة
لم يزل يدفقُ منها العبقُ

أنا والنجمُ رفيقا غُربةٍ
فاسألِ النجمَ متى نفترقُ

ايُّ دُنيا نسيتْ تاريخَها
شاقها الأمْسُ فهمَّتْ تنطقُ

جئتُها فانكفأَتْ أسوارَها
فتركتُ الريحُ فيها تشهَق







أنـــــزف الكيـــــرَ علـــــى أعــــتابهِا
فـــأرى الـــباب ورائـــــي يُغْلـــق

وأرى عينـــــيْن قـــــد أُغْمــــضَتا
وأرانـــــي فـــيهما أختـــــنق

همَّـــــت الـــسُّحبُ فهـــل شـــاهدتْها
إنَّ فــــيها غــــيمةً تـــندفقُ

فكـــــأنَّ الأرضَ مــــادَتْ فجــــأةً
وكـــأنَّ الـــصخرَ فـــيها يــصْعقُ

أيّهـــا الحـــبُّ متـــى مــوعدُنا
الـــصبا ولَّـــى.. فمـــاذا نعـــشقُ

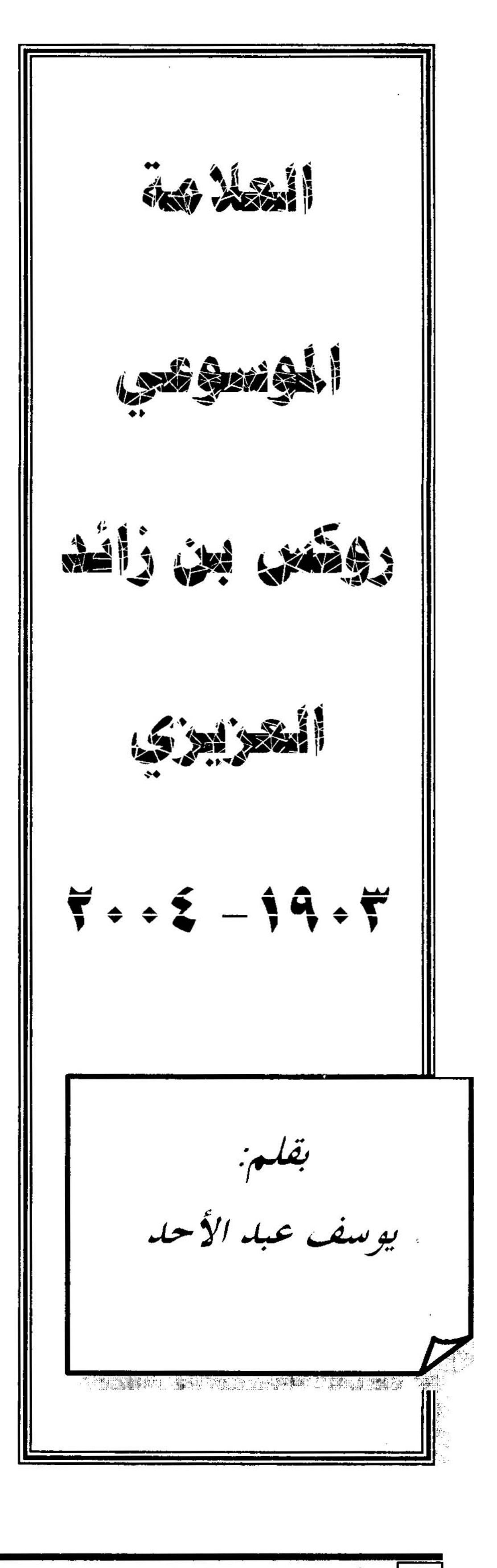
هــــي أوهامـــي أضــــاعَتْ وجههـــا
فـــادنُ مـــنها.. إنّهـــا تحتـــرقُ

خلتنـــي أفْلـــتُ مـــن أغلالهـــا
ثـــمَّ حـــدَّقتُ.. فغـــابَ الأفُـــقُ

فاركـــب المـــوجَ إلـــى أنْ ينتهـــيَ
واحـــتفلْ بالـــنجم أنّـــى يـــشرق

واتـــبعِ الـــشمسَ إلـــى مَغْـــربِها
قـــبل أن تهـــربَ مـــنّا الطـــرُقُ..



علم من أعلام الفكر والأدب وأحد أبرز أعلام شيوخ الأدب الذين ساهموا مساهمات كبيرة في بناء وإغناء وتجديد الحركة الأدبية في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين.

أغنى المكتبة العربية بطائفة كبيرة من مؤلفاته القيمة والمتميزة في الأدب والتراجم والتراث الشعبي الأردني.

ذاعت شهرته وطبقت الآفاق في الأردن والعالم العربي وبعض الدول الغربية وتولى مراكز عالمية ومرموقة.

أبصر النور في بلدة (مأدبا) الأردن في الثالث والعشرين من آب ١٩٠٣ وسمي روكس تيمناً بالقديس روكس الذي يقع عيده في السابع عشر من أغسطس.

نشأ في عشيرة العزيزات التي اكتسبت اسمها من سدانتها للإلهة العشق عند العرب (العزى) وتنتمي هذه العشيرة إلى (بني شيبان) أحلاف قريش.

في الشهر السادس من عمره مرضت أُمه فاستأجر والده مرضعة من بني قيس اسمها (غالية) واستمرت في إرضاعه حتى أكمل عامه الثاني.

تلقى دراسته الابتدائية في مدرسة اللاتين في مأدبا وهي المدرسة الوحيدة في بلدته ثم انقطع عن الدراسة بسبب نشوب الحرب الكونية الأولى سنة ١٩١٤ واستيلاء الحكومة العثمانية على المدرسة.

اتفق والده مع معلم يدرسه اللغة الإنكليزية ومعلم آخر ليدرسه اللغة الفرنسية، ثم واصل دراسته للصحافة وحصل على الدبلوم فيها.

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها سنة ١٩١٨ جاء إلى ماديا كاهن من بيت لحم يدعى (أنطون الحيحي) وكان يجيد العربية والفرنسية والإيطالية واللاتينية فأعاد المدرسة إلى نشاطها السابق وعيّن روكس معلماً فيها لتدريس اللغة العربية وآدابها.

تنقل روكس في مدارس عدة في الأردن وفلسطين وعلّم في كلية (ترا سانطه) أي الأرض المقدسة في القدس ثم في عمان وفي كلية الروم الكاثوليك، وكلية راهبات الناصرة، والكلية البطريركية الوطنية، وأمضى في حقل التدريس مدة ستة وخمسين سنة من عام ١٩١٨ إلى ١٩٧٤.

خلال هذه الفترة انكب على المطالعة والبحث وكان أول أديب أعجب به هو أمين الريحاني فقرأ مؤلفاته وقرأ القرآن الكريم وجمهورية أفلاطون، ولزوميات المعري، ورسالة الغفران، وأعجب بجرجي زيدان، وقرأ تاريخ آداب اللغة العربية، وتاريخ التمدن الإسلامي.

تأثر روكس بالإمام علي بن أبي طالب في نهج البلاغة، وبأعمال جبران خليل جبران، وكان تأثره بالغاً بالأب انستاس ماري الكرملي الذي علمه الصبر على التحقيق، وأشركه في تحقيق ثلاثة كتب الأول (نخب الذخائر في أحوال الجواهر) لابن الأكفاني والثاني (بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى فلك اليمن من ملك وإمام) للقاضي حسين بن أحمد العرشي، والثالث (النقود العربية وعلم النميات) ونشرت الكتب الثلاثة في القاهرة عام ١٩٣٩.

وفي عام ١٩٢٨ ألقى محاضرة في مدينة السلط بعنوان (أسرار نكبة البرامكة) وألقى بعدها محاضرات في الجمعيات والنوادي الثقافية.

وضع العزيزي مجموعة من المؤلفات القيمة، وصرف جهده الكبير في البحث في أدب البادية الأردنية وعادات شعوبها وأنجز كتابه الموسوعي (قاموس العادات اللهجات والأوابد الأردنية) في ثلاثة أجزاء وصدر ضمن منشورات دائرة الثقافة والفنون بعمان سنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ تناول فيه مشكلة اللهجات العربية القديمة والحديثة والأسلوب الواجب اتباعه لتقريب بعضها من بعض، ولاقى هذا القاموس رواجاً منقطع النظير وتأييداً من مجمع اللغة العربية بالقاهرة وتلقى رسالة من رئيس المجمع الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور جاء فيها:

((قاموسك ثمرة جهد طويل وعمل دائب وهو يواجه ناحية ما أحوجها إلى البحث والتسجيل في مختلف البلاد العربية وفي دراسة لهجاتها المعاصرة من يعين على تقريب بعضها من بعض والصعود بها إلى مستوى الفصحى)).

وأُعتمد قاموسه في جامعة (يوتا) الأميركية وفي جامعة (باث) في بريطانيا وفي جامعة السربون في فرنسا.

ثم وضع العزيزي كتابه الموسوعي الثاني (معلمة التراث الأردني) في خمسة أجزاء تناول فيه التراث الأردني من جميع النواحي، ونشرته وزارة الثقافة والشباب في عمان ١٩٨١ - ١٩٨٣.

أما تسمية (معلمه) فذلك اعترافا بفضل الأب انستاس ماري الكرملي صاحب هذا الاصطلاح.

تناول في الجزء الأول الأمثال والحكم، وفي الثاني الأسحار والحكايات والألغاز، وفي الثالث العادات والتقاليد، وفي الرابع الشعر الشعبي وتطوره واثره في القبائل، وفي الخامس اللغة والقواعد ومحاولة رد الألفاظ العامية إلى الفصيح والكنايات، وذكر في المقدمة عن أهمية دراسة التراث وكيف ينبغي أن يدرس ويصنف، وقد اختار كلمة (التراث) بدلاً من اصطلاح (الفولكلور) لأنها أشمل وأصدق دلالة.

المناصب التي تولاها في الهيئات العلمية والثقافية والاجتماعية

- أنتخب ممثلا للرابطة الدولية لحقوق الإنسان في الأردن سنة ١٩٥٦.

- وعضواً لمجلس الأبحاث الأتنولوجية في باريس.
- وعضواً في رابطة الأدب الحديث في القاهرة.
- وعضو شرف في النادي الأدبي في جدة.
- وعضواً في مجمع اللغة العربية الأردني.
- وعضواً في المجلس الوطني الاستشاري في دورته الثانية.
- وعضواً في مجلس أبناء المكتبة العامة في عمان.
- وعضواً في المجلس الأعلى للإذاعة الأردنية الهاشمية.
- وعضواً في مجلس التقارب الإسلامي المسيحي في القدس.
- وعضواً في جمعية رعاية السجناء في عمان.
- وعضواً في جمعية الصداقة الأردنية السوفيتية في عمان.
- ورئيساً لرابطة الكتاب الأردنيين سنة ١٩٧٦.
- ومثل الأردن في مؤتمر حقوق الإنسان وفي مؤتمرات أدبية عدة.

الجوائز والأوسمة التي نالها

* منح شهادة يوبيل جلالة الحسين الفضي التكريمية في الأدب في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٧٧.
* منح وسام التربية والتعليم
* نال جائزة الدراسة والبحوث.
* نال وثيقة التقدير الذهبية من القاهرة تقديراً لأعماله الأدبية وبحوثه المتميزة في ١٤/١٠/١٩٨٢.

وافته المنية بتاريخ ٢١/١٢/٢٠٠٤ في عمان.

لقد أغنى العزيزي المكتبة العربية بمؤلفاته القيمة التي جاوزت الستين كتاباً في الأدب والتراجم والسير والتاريخ والقصص واللغة والأبحاث والخواطر والتحقيقات والمعاجم، ويعد رائداً من رواد التجديد وظاهرة موسوعية وطاقة أدبية هائلة تحتاج إلى الدراسات الواسعة والتحليل وستبقى أعماله مرجعاً هاماً وخصبا للباحثين والمهتمين والدارسين على مر الزمن.

من مؤلفاته المطبوعة

١- المنهل في تاريخ الأدب العربي (في ثلاثة أجزاء) ١٩٤٦.
٢- سدنة التراث القومي – سيرة الأب ماري انستاس الكرملي ١٩٤٧.
٣- الزنابق (في سبعة أجزاء) مختارات من الشعر والنثر ١٩٥٠.
٤- أزاهير الصحراء ١٩٥٤.
٥- شاعر الإنسانية أحمد زكي أبو شادي ١٩٥٥.
٦- الأردن في التاريخ ١٩٥٥.
٧- الخلافة التاريخية (في ثلاثة أجزاء) ١٩٥٦.
٨- فريسه أبي ماضي (دراسة في أدب البادية) ١٩٥٦.
٩- مأدبا وضواحيها بالاشتراك مع الأب جورج سابا ١٩٦١.
١٠- الإمام علي أسد الإسلام وقديسه ١٩٦٧.
١١- قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية (في ثلاثة أجزاء) ١٩٧٣ – ١٩٧٤.
١٢- معلمة للتراث الأردني (في خمسة أجزاء) ١٩٨١ – ١٩٨٣.
١٣- جمد الدمع (في رثاء زوجته) ١٩٨١.
١٤- نمر العدوان شاعر الحب والوفاء ١٩٩٧.




زيارة..

شعر: أ. جابر خير بك

مـــرّت علـــى كوخـــي وزارتْ مربعـــي
حـــسناءُ تـــرفل بالجمـــال الأرفـــع

وتبـــسمت تـــيهاً كـــأن عـــيونها
لهفْـــى تفـــتِّش عـــن فـــؤادٍ طـــيّع

فـــسألتُ زائرتـــي الجمـــيلةَ هـــل أنـــا
مَـــنْ تقـــصدين؟ وأرجـــو أن لا ترجعـــي

أم ضـــيعتْ شـــمس الـــزمان طـــريقها
فـــي غفلـــةٍ، وأتـــت لغيـــر الموضـــع

فـــرنت إلـــيَّ بعـــزةٍ وتكبـــرٍ
وبـــدت كـــبدرٍ كامـــلٍ فـــي المطلـــع

خـــبأتُ نفـــسي خلـــف ضـــعف مـــشاعري
ولعـــنتُ فـــي ســـري غـــباءَ تـــسرّعي

قالـــتْ وقـــد غمـــر الحـــياءُ خـــدودها
فـــتوردتْ فـــي ألـــف لـــونٍ أروع

أنـــا مـــا أضـــعتُ الـــدربَ لكـــن ســـاقني
شـــوقي لـــرؤية مـــن يعـــيش بمخدعـــي

كـــل الـــدواوين التـــي أصـــدرتها
جمَعْـــتُها وتعـــيش فـــي بيتـــي معـــي







خـــــبأتُها حرِصـــــا وتحـــــت وســـــادتي
ليقـــــرّ جفنـــــي إذْ تلامـــــسُ إصـــــبعي

فلقـــــد قـــــرأت ملاحمـــــاً وقـــــصائداً
فـــــيها مـــــن الأدب الـــــرفيع المـــــبدع

ســـــحرتني أوزان البـــــيان وشّـــــدني
حلـــــوُ الكـــــلام وألـــــفُ بـــــيت ممـــــتع

فأتـــــيتُ أحمـــــل صـــــورةً عـــــن شـــــاعر
رســـــم القوافـــــي كالـــــنجوم الطُلّـــــع

وحلمـــــتُ أن أحظـــــى بـــــوعدٍ ســـــاحرٍ
أصـــــفى وأنقـــــى مـــــن زلال المنـــــبع

* * *

ســـــكتتْ وغـــــضّتْ طـــــرفها وتمايلـــــتْ
خجلـــــى بتمـــــتمة تلامـــــس مـــــسمعي

فـــــتعلق القلـــــب الظمـــــيُّ بحـــــسنها
وتـــــسارع الخفقـــــان خلـــــف الأضـــــلع

وصـــــحوتُ مـــــن حلـــــم يـــــراود مقلتـــــي
لـــــيعبَّ مـــــن هـــــذا الجمـــــال تطلعـــــي

خاطبـــــتها والـــــشوق يـــــنهش فـــــي دمـــــي
ويغـــــور فـــــي صـــــدري كطعـــــنة مبـــــضع

يـــــا حلوتـــــي أهـــــلاً بمـــــن جـــــاءت إلـــــى
كوخـــــي وزارت كالكـــــواكب مهجعـــــي





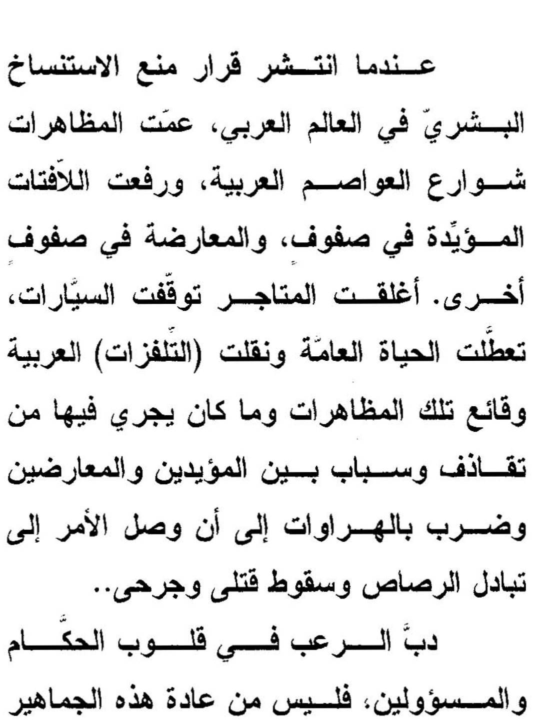


أنـــــا لا أقـــول الـــــشعرَ إلاَّ عـــــندما
أحظـــــى بفاتـــــنةٍ وجـــيدٍ أتلـــع
فتـــثور فـــي قلمـــي الوفـــي عواطفـــي
ويـــــصبُّها فـــوق الـــصحائف مدمعـــي

*　　　*　　　*

شـــــكراً لزائرتـــــي وألـــــف تحـــيةٍ
مـــن صـــادقٍ بالحـــبِّ لا مـــن مدعـــي
عـــودي فإنـــي يـــا جمـــيلةُ حـــالمٌ
بـــزيارةٍ أخـــرى لهـــذا الموقـــع
أو لوّحـــي ببـــنانٍ كفـــك مـــرةً
أســـعى إلـــيك ولـــو بـــذلك مـــصرعي
وإذا أتـــيتِ وجـــدتِ قلـــباً حارســـاً
صـــادي الجـــوانحِ عـــند بـــابٍ مُـــشرع
ردتْ علـــــيَّ ببـــــسمتين وغـــــادرتْ
عجلـــى. وغابـــت كالـــسراب بـــبلقعِ
تـــركت علـــى الكرســـيِّ شـــالاً أخـــضراً
يغـــتال باصـــرتي ويقلـــق مـــضجعي
فـــضممته وشـــممتُ عطـــراً رائعـــاً
مـــازال يعـــصف بالفـــؤاد المولـــع
وطـــويتُ أحزانـــي وعـــدتُ كمـــا أنـــا
بـــين الدفاتـــر لا أحـــسُّ ولا أعـــي



قصة

استنساخ

بقلم الأستاذة:
عبير كامل إسماعيل

عندما انتشر قرار منع الاستنساخ البشريّ في العالم العربي، عمّت المظاهرات شوارع العواصم العربية، ورفعت اللاّفتات المؤيِّدة في صفوفٍ، والمعارضة في صفوفٍ أخرى. أغلقت المتاجر توقّفت السيّارات، تعطَّلت الحياة العامّة ونقلت (التِّلفزات) العربية وقائع تلك المظاهرات وما كان يجري فيها من تقاذف وسباب بين المؤيدين والمعارضين وضرب بالهراوات إلى أن وصل الأمر إلى تبادل الرصاص وسقوط قتلى وجرحى..

دبَّ الرعب في قلوب الحكّام والمسؤولين، فليس من عادة هذه الجماهير المحتشدة أن تقوم بكلّ تلك الفوضى، في أسوأ الحالات كانت تصدر بياناتٍ تشجب وتستنكر أو تثنّي أو تبارك، فأيّ هولٍ هذا؟

تضرّر الجميع جرّاء ما حدث، التجّار، المزارعون، سائقو السيّارات، العمّال، لم يكن ثمة من فرح إلاّ أصحاب العربات، فقد اجتمعوا في أماكن التّظاهر ليبيعوا الحّمص والفول والذّرة والعصير، استبشروا بالفرج المفاجئ ودعوا الله أن تستمر هذه الحالة طويلاً، فأخذ كلّ بائعٍ يشجع الفريق الذي يبيعه، ويحثّه على الثَّبات والتمسّك بالمبادئ وعدم الخيانة..

وكذلك العشاق وجدوا في هذه المظاهرات منفذاً للقاءات طويلة دون أن تطالهم ألسنة السّوء، فاختار معظم الشبان أماكن تواجد فتياتهم، ونقلت إحدى الكاميرات بالصّدفة صورة للافتة قماشية مقلوبة يحملها

شـــاب عيناه تسبحان في فضاء أنثوي لا يمت لما حوله بصلة..

استمرت هـذه الحالة شهراً كاملاً.. اجـتمع خلالــه المسؤولون مرّات عدّة إلى أن توصلوا إلى حلٍّ وجدوه مناسباً..

جمعوا ممثلين عن كلّ فريقٍ ليستمعوا إلى وجهات نظرهم ويخرجوا بقرارٍ أخير يهدئ الأوضاع المتوترة ويعيد الحياة إلى طبيعتها..

عقدت الجلسة الأولى لهؤلاء الممثلين حول طاولةٍ مستديرةٍ وما إن ابتدأت حتى صاح ممـــثّل عــن فــريق المــؤيدين لقــرار مــنع الاستنساخ:

- لا أدري علــى ماذا تعترضون، إنه القــرار الوحـيد الصَّحيح الذي يتخذ في بلادنا منذ زمنٍ طويل.. أتريدون أن تشاركوا الله في الخلــق؟ أيــة بدعة هذه؟ ثم ألا يكفينا التضخم الــسكاني الــذي نعاني منه حتى نستنسخ من يشاركنا طعامنا وطعام أبنائنا..

قاطعه ممثلٌ عن فريق المعترضين:

- أيهـــا الجهلـــة ألا تعلمون أن قرار المنع هذا مخطط صهيوني إمبريالي ضد أبناء جلدتنا.

اتّــسعت العيون دهشة وسرت همهمة بــين المجتمعــين فأكمل حديثه وهو يحسُّ أنَّه يمسك بزمام الموقف:

- نعم كما أقول لكم، مخطط صهيونـي، أولاً: إنهــم يتهمونـــنا بالتخلف وعدم مجارات تطورات الحياة، ونحن بقرار الرفض هذا نثبت التهمة على أنفسنا، وثانيا: لا يريدون أن نقوم بأيّ عملية استنساخ لأنهم قرأوا تاريخنا جيداً، ويعلمــون كـم نمــتلك من شخصيات عظيمة يخافون أن نعيد إحداها إليهم فتكون صفعة لهم ولمخططـــاتهم، وهـــا أنتم تساعدونهم دون أن تــشعروا، فمــن مــنّا هــو الخائن؟ إذا قرَّروا استنـــساخ هتلــر أو نيـــرون فمن سيقف في وجهه؟ ألا نريد أحد رجالنا العظام..؟

بــدت القناعة تظهر على الوجوه شيئاً فشيئاً، وغدا عدد الذين صمّوا آذانهم وتشبثوا بــرأيهم يقــلّ، وتحيّر البعض، كيف لم يخطر على بالهم مثل هذا الخاطر..؟

أخيــراً وبعــد مــداولات كثيــرة اتفق الجمــيع على المبدأ، ثم بدأت المشاورات حول الشخصية المراد استنساخها..

اقتــرح أحــد المجتمعــين امرأ القيس الشاعر الجاهلي، فهبَّ مُلتَحٍ صارخاً:

- هـــذا الفاسق الماجن، لم تسلم منه إمرأة، أية فائدة نجنيها من وجوده معنا..

فاقترح آخر:

- لـمَ لا يكــون ابــن رشــد العـــالم والفيلسوف العظيم..

زعق الرجل الجالس قبالته:

- الفلــسفة من الزندقة.. لا حاجة لنا بمثله في وقتنا الحاضر.

قال آخر:

- ليكن عبد الملك بن مروان..

احتجّ رجل على يساره:

- ولماذا يكون من بني أمية؟ لم يكن أجدادنا مجمعين على موالاتهم، لماذا لا يكون من الفئات المعارضة لهم؟

أجابه المقترح:

- ومن أعظم منهم؟ لقد بلغوا بحضارتنا ذروتها.

وكاد النقاش ينتهي بالضرب، لولا أن أوقفهم رجل مسنّ قال بصوت زاجر:

- فلنختر رجلاً صلباً، حكيماً وقائداً، بغض النظر عن انتمائه المهم أن يفيدنا في معركتنا ضدّ هؤلاء الفرنجة الجدد..

ثنّى رجل على هذا القول واقترح الأحنف بن قيس، فهو (إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيفٍ لا يسألونه فيم غضب) لرجاحة عقله وحنكته وذكائه..

اعترض آخر:

- كان قبيح المنظر، تتفاداه الأبصار، وهذا سيعطي الغرب صورةً سيئة عن أشكالنا فيجعلونه مادّة كاريكاتيرية.

أخذت الاقتراحات تتوالى، بعضهم يؤيد والآخر يعارض وكاد المجلس ينفضّ عن مذبحةٍ بعد أن ارتفعت الخناجر، وأشهرت المسدسات.. على أن انبعثت صيحة طغت على الضجة وأخرست المتصايحين:

- ما رأيكم بالمعتصم؟

هدت القاعة شيئاً فشيئاً، وأخذ المؤتمرون ينظرون إلى بعضهم، وسرت همسات هنا وهناك.

- عباسي!!!

- أمّه تركية!!!

احتال صاحب الصّوت لإقناع الحاضرين مذكراً:

- ألا يكفي أنه لبّى صرخة عربية استنجدت به؟ ألا يكفي أنّه جنّد جيشاً ليحرر امرأة صاحت: وا معتصماه..؟! ألا يكفي أن نداءً صغيراً لامس أذنه وقلبه فهبَّ للجهاد؟!

مرّة ثانية بدت علائم الارتياح على وجوه بعض الحضور، وعدم الرّضى المكتوم على وجوه الآخرين، وهمس رجلٌ لصاحبه:

- ليتنا قرأنا تاريخ المعتصم جيداً لنعرف ماذا ارتكب من معاصٍ.

لكنّ الجميع كانوا قد وصلوا إلى اتفاق شبه كلّي يؤيّد فكرة استنساخ المعتصم..

بعد سنين من الاجتماع الحافل، عاد فريق الأطباء العربيّ الذيّ سافر إلى الغرب لإجراء عملية الاستنساخ بعد أن رفضت كلّ الدّول العربيّة أن تُجري العملية على أرضها..

كان بصحبتهم رجلٌ ذو هيبةٍ وقامة فارعة، ووجهٍ بشوش، عليه حلّة الإمارة وعباءة الخلافة.. إنه المعتصم..

نزل الفريق في مطار إحدى الدّول العربية، نظر المفتش إلى هيئة الرجل الغريبة، طلب هويته الشخصية، ثم أخذ يتفحصه وينقل بصره بينه وبين الهوية وهو يقرأ البيانات بنبرة اتهامية.

- الاسم: المعتصم.

- الأب: هارون الرشيد.

- الأم: ماردة التركية.

- العلامات الفارقة: أذنان مرهفتا السَّمع تستطيعان سماع استغاثة الملهوف على بعد مئات الأميال..

بدا عدم الارتياح على المفتش، أخذ الأوراق وعاد بعد ساعاتٍ مع الرد بعدم الموافقة على الدخول، فهذا الشخص مشكوك بأمره، ويعتقد أنه ماركسي يريد بأذنيه أن يلبي دعوات الثورة والتمرد..

وبين دهشةٍ واستنكار استقل الفريق طيارةً أخرى ونزلوا في مطارٍ عربيٍّ آخر، وبعد إجراءات تفتيش مماثلة جاء الرد بعدم الموافقة على الدخول أما السّبب: فهو أن هذا الشخص يعتقد أنه إرهابي يراد به تنفيذ عملياتٍ تخلّ بالأمن العام.

انتقل الفريق إلى مطار ثالث وقوبلوا أيضاً بعدم الموافقة:

فهذا الرجل ينتمي لنظام ملكي والبلد نظامه جمهوري، واستمرت به الحالة أياماً وأيام وهم ينتقلون بين المطارات والموانئ العربية والمعتصم حائر، وهو يسمع أنّه في مرةٍ جاسوس، وفي مرة أخرى تاجر مخدرات، وفي ثالثة: معارض سياسيّ، وفي رابعة: لاجئ..

فصرخ بأصحابه وهو مذهول أمام سيول المصطلحات التي ما فهم لها معنىً:

- لا أريد أن أسمع شيئاً بعد الآن.. لكأنّي لست عربياً أو لكأنكم لستم عرباً..

نظر الأطباء إلى بعضهم متحيرين.. قال أحدهم موقناً:

- أعتقد أنّ المشكلة تكمن في أذنيه.. الجميع خائفون منها، علينا أن نتصرف قبل أن يطالبنا أخواله الأتراك به.

هزّ الجميع رؤوسهم مؤمّنين على ما قاله وابتسموا كأنهم يبيّتون أمراً..

بعد أسابيع عاد الفريق بعد رحلةٍ قام بها إلى الغرب لإجراء التعديلات المناسبة على شخصية المعتصم عند نزولهم في المطار. قرأ المفتش بياناته:

- الاسم: المعتصم.

- الأب: هارون الرشيد.

- الأم: ماردة التركية.

- العلامات الفارقة: أصم..

منذ ذلك اليوم وفريق العلماء يجول أنحاء البلاد العربية ليطلّ على النّاس من الشّرفات برفقة المعتصم..

وبينما النّاس المستبشرون، المسحوقون، الآملون، ينادون بأصوات مستنجدة باكية:

- وا معتصماه.. وا معتصماه..

كان المعتصم ينظر إلى حركة أيديهم وأفواههم فيبتسم كالأبله، ويردّ عليهم:

- شكراً.. شكراً على حبّكم لي.. شكراً على هذه الاستقبالات الحافلة....

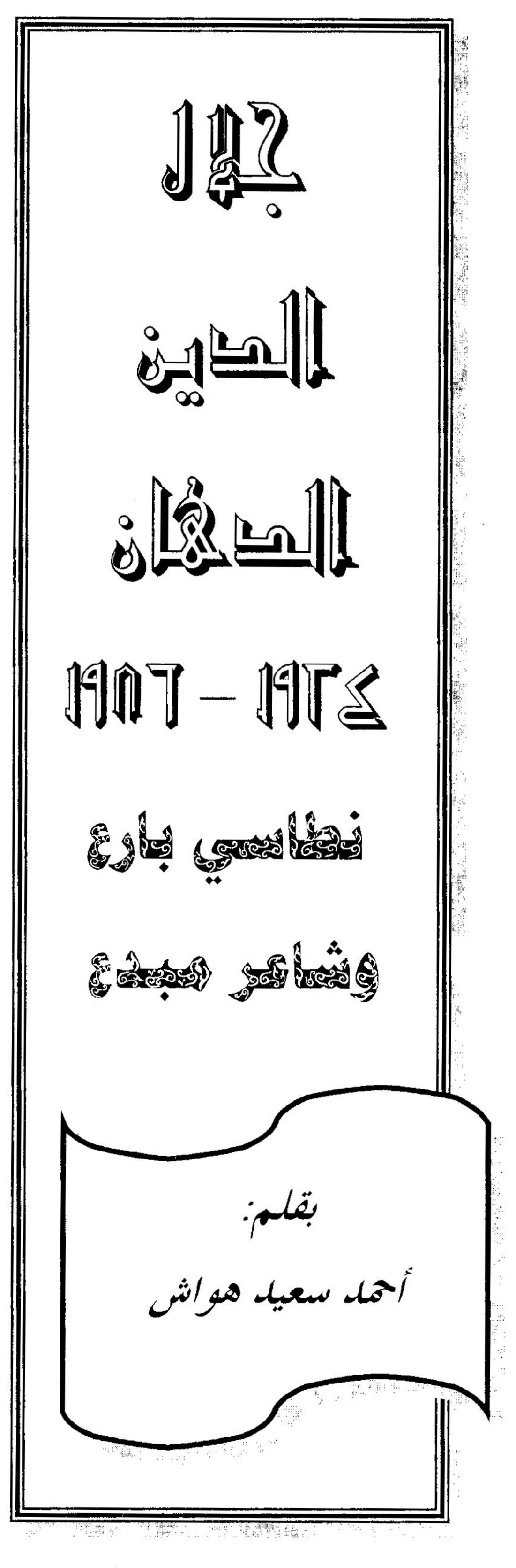



سلاني..

شعر: حسان الصاري

سـلاني واسـتراح مـن العتاب
وخلّفني علـى جمـر العـذاب
ولـم يتـرك لـديَّ سـوى كـتاب
سـفحتُ علـى صحائفه شـبابي
عذابـي يبـتدي مـن يـوم قالـت
رحيلـي عـنكَ خاتمـةُ الكـتاب
سـأرحل عـنكَ قالـتها وألقـت
بوجهـي مـا تجمَّـع مـن رغابـي
وسـارت والعبيـر يذيـع سـراً
تناثـر مـن ذوائـبها الـرِّطاب
حـنوتُ علـيه بالأهـداب حتـى
تغلغـل بـين طـيَّات الثـياب
سـأخفيه وإن قالـوا سـيفنى
كمـا تفنـى الـزهورُ مـن الهـضاب
وأسـقيه بمـاء العـين دمعـاً
أحـنّ علـيه مـن مـاء الـسحاب
سـلاني كـيف؟ والماضـي مقـيمٌ
يـرفُّ علـيَّ بالألـق المُـذاب
تمـازج فـي دمـي وانـساب نـسغاً
سـيبقى فـي الـضلوع إلـى الحـساب
شـفيعي عـندها خفقـاتُ قلـب
عنـيدٌ كلمـا ذُكِـرت يحابـي
لـه فـي حـبها رأيٌ.. عجـيبٌ
يـصافيها ولا يـدري بمـا بـي
ويتركنـي ألمْلـم.. مـا تبقّـى
مـن الأحـلام فـي عهـد التـصابي



الأطباءُ الشعراءُ كثرٌ في أدبنا العربي، ولشعرهم ميزة خاصة مضمخة بنفحات القلب المفعم بالحب والخير والجمال.. وكانت ولا زالت عينية ابن سيناء الطبيب العربي الفيلسوف الشاعر آية في الإبداع الشعري.. وقد عارضها عديدون من الشعراء العرب المعاصرين، ولم يصلوا لمستواها في المعنى والمبنى.

ومن الشعراء الأطباء العرب المعاصرين المشهورين، الدكتور إبراهيم ناجي في مصر، ومن لبنان الدكتور نقولا فياض الذي فاض قلبه حباً بالرسول العربي الكريم محمد ﷺ، وفي القطر العربي السوري، كان الدكتور الحموي وجيه البارودي الملقب بـ (سيد العشاق) ومن الأردن الشاعر الدكتور عبد المنعم الرفاعي.. وغيرهم.

ومنذ أشهر قليلة مضت وقفت على ترجمة لطبيب شاعر، لم أسمع به من قبل (جلال الدين الدهان) وفتشت عن آثاره الشعرية، فوجدت: (رباعيات جلال الدهان)، و(ديوان جلال الدهان)، وقد تميز هذان الأثران الشعريان بالمضمون الشعري الرائع، والإخراج الممتاز، وقد نسخا بخط فنان ماهر؛ وفاضت فيها قريحة شاعر مبدع غمس ريشته بدم قلبه المفعم بالحب والشاعرية.

وعجبت ألا يكون مثل هذا الإنسان ملء العين والبصر، يذكر اسمه ويقرأ شعره في منتدياتنا الأدبية، وفي الأمسيات الشعرية، وأن يُكرَّمَ من نقابة الأطباء، واتحاد الكتاب العرب، وغيرهما من المؤسسات الثقافية المناط بها تكريم المبدعين في حقلي الاختصاص المهني، والشعري؟!.

وقد أهدى الشاعر الطبيب جلال الدين الدهان رباعياته إلى ذلك المخلوق العجيب، إلى الإنسان، فقال مخاطبا إياه:

وصلت النجومَ نزلت القمر
درسْتُ العلوم حفظْتُ السيَرْ
ومازلْت غرّا تناسى العبر
وأنّ الهلاك قصيرٌ البشرْ

فهو يشيرُ إلى نهاية الإنسان المحتومة مهما ارتقى ووصل بفضل العلوم الكونية، متناسياً العبر والدروس التي اكتسبها من حياته على وجه هذا الكون.

ولعل الطبيب الشاعر جلال الدين الدهان استفاد من دراسته المتعمقة للعلوم الطبيعية واختصاصه (الجراحة) من أرقى جامعات أوربا وأميركا، فعرف قدرة الخالق تعالى في مخلوقاته، فأهدى رباعيته الثانية إلى الكمال والحب المطلق.. إليك يا خالقي فقال:

منْ علَّمَ الشحرور تغريد السَّحرْ
منْ نمنم الدنيا بألوان الزّهرْ
منْ فجّرَ الأنهار منْ ماء المطرْ
قدْ أنْزلَ الأديانَ هدْياً للبشر

وفي الإنسان، الذي كوّنه الله في أحسن تقويم، فتجاهل الإنسان ذلك الإبداع:
﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة: التين].

فقال شاعرنا:

يا منْ جعلتَ من النُّطفة موْلدي
يا منْ وهبْتَ لنا الرَّشاد لنهتدي
أعطيتنا ورقاً وتبراً في اليّد
فتجاهل الإنسانُ حيناً في الغد

وقدْ قسَم الشاعر جلال الدين الدهان ديوانه (ديوان جلال الدهان) إلى خمسة أبواب: في الغزل، في الوصف، قوميات، في الرثاء، والباب الخامس تأملات.

وقد أفْتُتحَ الديوان بكلمة (استهلال) كتبتها زوجة الشاعر السيدة أميمة، عبرّت فيها عن حبها ووفائها لزوجها الطبيب الشاعر المبدع الراحل جلال الدهان، كما أهدى الشاعر ديوانه إلى زوجته أميمة، رفيقة حياته وملهمة إبداعاته هذه.

وقد ضم الباب الأول – الغزل – ثمانية عشرة قصيدة تنعش النفس لما حوته من صدق وعفوية وعفة تكاد تلامس شغاف القلب منها: الفراشة، عيونك، حنين، عتاب، ظالمة الحسن.. فنقرأ من القصيدة الأخيرة، غيرة الجمال المتمثل بالحبيبة وغيرة الورد المتمثل بزهور الروض من ياسمين وغيره، ونقرأ مفردات الجمال في الأنثى الحبيبة والطبيعة المتمثلة بالزهور المتنوعة فكلتاهما تمثلان الجمال في أسمى معانيه وشخوصه: الورد برعم الصدر، الغيرة بياض الياسمين، الجيد اللجيني والنحر فقال:

أراك قتلت الوردَ كيدا بوجنة
فصبَّ دماء الطهر في برعم الصدر
ولم أكُ أدري أنّ في الورد غيرةً
وأن زهورَ الروض تذْوي من القهر
وكلَّ بيَّاض الياسمين سكبتيه
على صفحة الجيدِ اللجيني والنَّحْرْ

واختصاراً سنجتاز بعض أبواب الديوان، فنقرأ في الباب الثالث قوميات (دمشق العرب) فقد اجتمع بهذه القصيدة عراقة دمشق عبر التاريخ، فهي حاضرة الأمويين، وعاصمة سورية الصامدة على مدى العصور، وموهبة الشاعر الدهان الشعرية المتأججة بحب عروس قاسيون، مظهراً عروبة دمشق ومكانتها لدى أخواتها من العواصم للدول العربية الشقيقة، أنها درة التاريخ، التي جمعتْ بين شموخ الماضي وجلاله، وصمود الحاضر وتوهجه،

إنهـا الملكة الجالسة على سفح قاسيون ومن يمينـها ويـسارها الخـضرة والجمال والماء الـزلال المتمـثل بالغوطتـين وبردى المعطاء فقال:

يـا وردة فـي جبين الدهر يا بلدي

لـم يخلق الدهرُ يوماً ما يضاهيها

هـنا الخمائـل سكرى في أزهارها

والطيـرُ ترقصُ نشوى في مغانيها

إلـى أن قـال مـشيراً إلـى ماضيها المجـيد، وتاريخها الأثيل، وصمودها في وجه أعدائها:

فـيها أمـية قـد عاشتْ مفاخرها

وأطلقـت أكـف الأيـام تحلـيها

فكـم لُـيوث تـبارتْ وهي باسمةٌ

يـومَ الجهـاد فأفنت منْ يعاديها

حتـى غـدت كالطـودِ شـامخةً

المجـدُ يخـتال فخراً في أعاليها

وتظهر عاطفة الشاعر الوطنية الحارة نحـو عاصـمة العـروبة (دمشق)، فهي الأم الحـنون، وهـي رمـز الأسمى حب، ودمشق تستحق منا جميعاً التضحية والفداء، إنها رمزُ للـبطولة، التـي يحمـيها الله وسواعد الأبناء البررة فقال:

إنـي ربيـبك يـا فيحاء يا وطني

فـالأم أنـت ومنـي الروحُ تفديها

لا تجزعي من شرارِ الأرض قاطبةً

فـإن أرضـك عـينُ الله تحمـيها

وكـان للمرأة العربية حضورها الآثر منذ فجر التاريخ العربي، فبرزت نساءٌ عربيات لا زال ذكرهن فخراً للأجيال العربية على مدى العـصور والدهور: الخنساء، أسماء بنت أبي بكر، خولة بنت الأزور وغيرهنّ الكثير الكثير. وقد سارت المرأة العربية المعاصرة على نهج جدتها في تاريخنا القديم، فكانت جميلة بوحيدر فـي الجزائر، وشادية أبي غزالة في فلسطين، وحمـيدة الطاهـر من سورية، وكان من تلكن الـبطلات الـشهيدة سناء محيدلي التي ضربت المـثل الأعلـى في البطولة النسوية في نهاية القرن الماضي، فجعلت من نفسها قنبلة تفجرت فـي وسط جنود وآليات العدو الإسرائيلي في الجنوب اللبناني..

وقـدْ حرّك هذا العمل البطولي الرائع حميمة الشعراء العرب، وفجَر طاقاتهم الشعرية الكامـنة، فانطلقت بأروع قصائد الفخر بالبطلة الـشهيدة (سـناء محيدلـي)، وكان لشاعرنا الطبـيب جلال الدين الدهان قصيدة معبرة عن الـبطلة الشهيدة (سناء محيدلي) أظهر فيها أن سـبل التـضحية والفداء لم ينقطع أبدا، فبقي مستمراً على مدى التاريخ، ولكن رواده شباباً وشـابات فـي عمـر الـورود، قدموا حياتهم رخيـصة فـي سـبيل الوطن والأمة العربية، وهاهـي الـشهيدة (سـناء) تجدد ذكرى من استـشهد قبلها فقال منْ قصيدة سناء محيدلي فـي الـباب الـرابع، الرثّاء وسناء لا تحتاج لرثاء، فالرثّاء لنا نحن الأموات الأحياء:

وهبوا الحياة رخيصة ما نابهم

ذعرٌ إذا ما احتدت الهيجاءُ

فهمْ الأشاوسُ في ميادين الوغى

ولكم تسابق صبية ونساءُ

لحماية الأوطان من أعدائها

خاضوا الغمار وفي النفوس جيلاءُ

لبلوغ منزلة الشهادة والفدا

ولهم مثالٌ يحتذى الخنساءُ

من أعصرٍ فخرتْ بها أترابها

واليومْ ترجعُ مجدهُنّ سناءُ

إنها البطولة المتجددة المتصل نسغها في دوحة الأمة العربية، لتستمر باسقة خضراء معانقة عنان السماء.

وفي الباب الخامس، (تأملات)، نقرأ رسالة شعرية وداعية على لسان طيار عربي استشهد وهو يدافع عن سماء بلاده ضد بواشق العدو الإسرائيلي، أرسلها الشهيد إلى زوجته، انعكس فيها الدفء والحب الأسري، الذي لا يعلو عليه إلاّ حب الوطن والاستشهاد في سبيله، فقال الشاعر الدهان من قصيدة (الرسالة الأخيرة) مخاطباً رفيقة عمره:

حبيبتي سامحيني إنّه قدري

بأن أكون منَ الحُرّاس للعلم

وأن أدافعَ عنْ قومي وعنْ كذجي

وآلُ صهيونَ ما كانوا سوى برمِ

يُهدّمون بيوتَ الأهل في بلدي

ويقتلونَ ذوي الإيمانِ والكرم

ثم يضيف الشهيد معركته مع طياري آل صهيون، فكان الثبات من طيارنا العربي الشهيد الذي قاتل عن عقيدة وإيمان بواجبه للدفاع عن الوطن وأبناء شعبه لذا تميز قتاله بالثبات والجرأة والعزيمة على خلاف الطيار المعتدي الإسرائيلي لذا لا يحمل سوى الروح العدائية لكل ما هو عربي، فقال الشاعر على لسان الطيار العربي البطل:

وفي السماء تلاقينا فأرهبُهمْ

مني الثباتُ وما في النفس من حدم

وقد جعلت بمثوى الغيم مقبرةً

لكلِّ منْ شكَّ في بطشي وفي شُكمي

ثم يبلغ الطيار العربي زوجته شعوره وإحساسه بقرب استشهاده في سبيل الوطن، تلك الأمنية التي يتمناها كل إنسان محب لوطنه، لينال شرف الشهادة، وما توجبه من عز وسمو ورفعة في الدارين: الدنيا، والآخرة فقال:

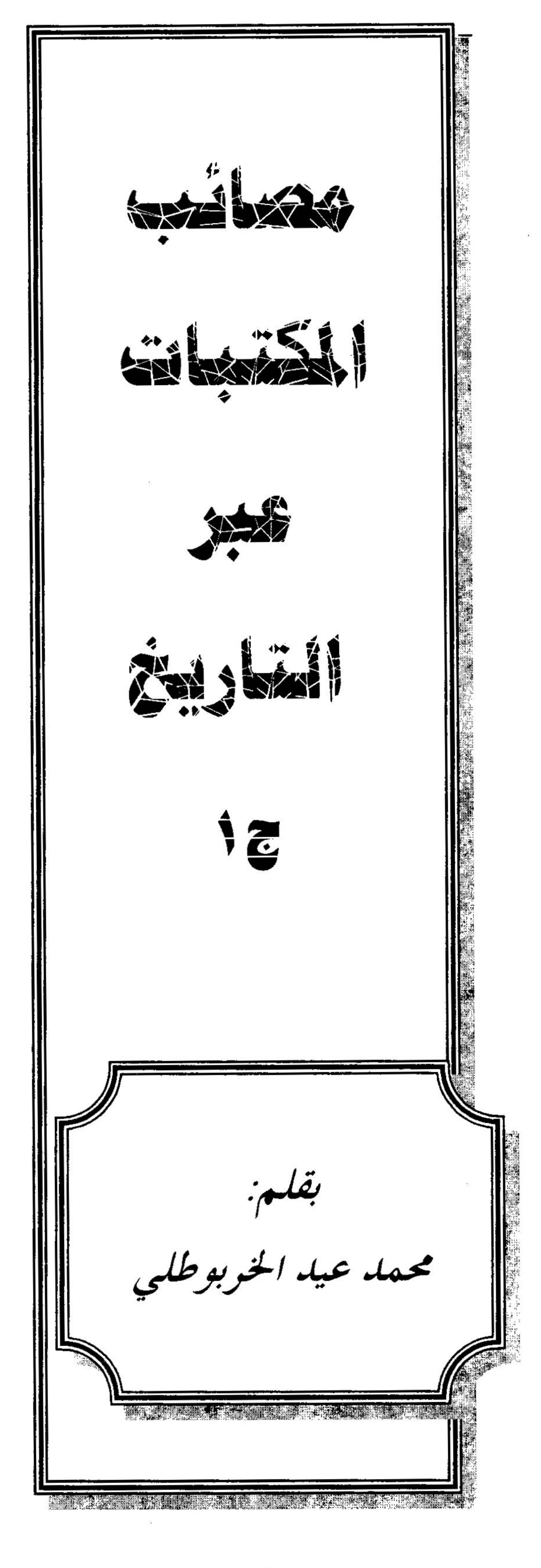
واليومَ، يأمنيتي، حسٌ يخامرني

بأن صوتاً يناديني من القِدم

يقول لي: يا فتى آن الأوانُ لكي

تمضي شهيداً ولا رفضٌ لمُنحتم

وما أجملها من خاتمة يتلاقى فيها الإبداع الشعري والبطولة وعبق الشهادة، فنشمْ رائحة الدم الزكي المراق في سبيل الوطن، دم الشهداء الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم ليسعد من بعدهم أبناء شعبهم في وطن حر أبي فألفُ تحيةٍ لهم، وتحية لروح الشاعر الطبيب المبدع جلال الدين الدهان حامل اليراع والمبضع.



أبدع أبو الطيب المتنبي حينما وصف الكتاب - بأنه خير جليس في الزمان - فالكتاب قديما كانت له قيمته وأهميته باعتباره القناة الوحيدة لنقل العلم والمعرفة والفنون والثقافة بين الناس.

وهل نتخيل الدنيا دون كتاب وبالأحرى دون ثقافة مطبوعة، وهل نتصور العالم دون حبر المطابع وعطر الحبر، إن ثقافة الكتاب باقية، يقول الجاحظ في فضل الكتاب: نعم الذخيرة والعدة، والمستغل والحرفة، ونعم القرين والدخيل، والوزير والنزيل، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، يطيل إمتاعك، ويشحذ طباعك.

وكما قيل فيه:

لم يبق شيء من الدنيا تسر به
إلا الدفاتر فيها الشعر والسحر
مات الذين لهم فضل ومكرمة
وفي الدفاتر من إحسانهم أثر

وقد قيل في فضل الكتاب الكثير، وألف في ذلك الكتب والرسائل، وما ذلك إلا لقيمته وعلو قدره وشأنه، ومهما اخرج لنا العلم الحديث من اختراعات واكتشافات سيبقى للكتاب مكانته، وللقلم إبداعه.وأينما يكون العلم لابد أن يكون الكتاب موجوداً محترماً ومقدراً، ومن دون الكتب أو الكلمة أو الحرف لا وجود للحياة، ففي البدء كانت الكلمة، وواقعنا الذي نعيشه يؤكد أن الحرف مازال سيد الكلمة، وأن الكلمة المكتوبة والمطبوعة مازالت تحتل مكان الصدارة في عقولنا ومكاتبنا ومنازلنا. والقراءة تمنح الإنسان نعمة لا مثيل لها، فهي تنشط الخيال وتفتح مسامه، وتمكن للمرء الذي يقيم مع الكتاب علاقة قوية الإبحار في فضاءات لا شطوط لها وتهيئ له مسرات مغايرة ومفاجآت مبهجة، إن القراءة - خبز الخيال - والذي يخاصم الكتاب ولا يقرأ لن يعيش إلا حياته فقط، ولن تفقد الكلمة المكتوبة سحرها وألقها على مر العصور، وإذا كانت الكتب قد ارتبطت بأماكن العبادة على مدى التاريخ كله، فاحتضنته المعابد الوثنية والأديرة المسيحية والمساجد الإسلامية، واتخذتها الدول الحديثة لنشر مبادئها وفلسفاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية فقد كان لها في ظل الإسلام شأن كبير، والذين يؤرخون للحضارة

الإسلامية يقفون مشدوهين أمام حركة التأليف والترجمة التي امتدت جذورها في القرن الأول الهجري وآتت ثمارها في القرن الثاني الهجري وما تلاه.

لا يخفى أن الكتاب في أي أمة من الأمم مظهر من مظاهرها الحضارية، بل هو أهم تلكم المظاهر وأبعدها أثرا، لأنه الوعاء الذي يضم ثمرات عقول أبناءه وإبداعاتهم في مختلف مناحي الحياة.

وليس الكتاب مجرد كيان عادي، لكنه كائن حي، ومن المؤكد أن حياة البشر قد تأثرت بهذه الوسيلة القديمة والأساسية من وسائل الاتصال الأساسية، ويمكن أن نقول مطمئنين أن حضارات كوكبنا وثقافاته لم تبدأ في الازدهار والانتشار إلا بعد اختراع الكتاب، لأنه وعاء المعرفة والأفكار التي لا توجد ثقافة متقدمة من دونها، من عناصر الألواح الطينية و لفائف البردي إلى مجلدات عصرنا، وعلى حد قول - د. جي ستوري براون - مدير مكتب الشؤون التربوية والثقافية في وكالة المعلومات بالولايات المتحدة الأمريكية فإن (فكرة الثقافة نفسها كانت في نشأتها متصلة بالتعليم عن طريق الكلمة المكتوبة... ولقد أحدث الكتاب - كميراث إنساني عالمي - تغيرا جوهريا في مفهوم الثقافة، وبعد هذا التغير أحدث سمات الحداثة، ودليلا على وجود الكتب).

واكتشاف الكتابة وتطور أشكالها ورسائلها من أهم الخطوات التي خطاها الإنسان في انتقاله إلى الحياة المدنية، فقد مكنته من تسجيل أفكاره ومشاعره، ومن التعبير عن محيطه ومعيشته، كما مكنته من تدوين المعرفة ونقلها إلى الأجيال اللاحقة وجعلت التفكير الإنساني كله عملية متصلة ومستمرة تتفاعل فيها الأفكار والثقافة والحضارات في سبيل التقدم وخلق المستقبل الأفضل، ونرى أن الكتاب عكس روح كل حضارة منذ فجر التاريخ، فقد ارتبط مع قدماء المصريين بالفكرة الدينية، ومع الإمبراطورية الرومانية بفكرة التمجيد والعظمة، بينما ارتبط مع الحضارة الإسلامية بالروح العلمية والإنسانية.

اهتمام العرب بالكتاب

أسوق خبرا يعد نموذجا على الاهتمام بالعلم والحرص على الكتاب والمكتبات:

في معرة النعمان كانت مكتبة أبي العلاء المعري عامرة بنفائس الكتب، ووافق أن عالما من اليمن عنده كتاب في اللغة قد سقط أوله، وأحب اتمامه فكان كلما اجتمع بأديب أراه الكتاب وسأله عنه، فلم يعرفه أحد، حتى وجد من يدله على أبي العلاء، فرحل إليه في المعرة واجتمع به وأخبره بقصة كتابه الناقص وقرأ عليه شيئا منه، فقرأ أبو العلاء من أوله إلى ما هو عند الرجل فأتم نسخته وعاد إلى اليمن، ويقال: إن هذا الكتاب هو ديوان الأدب للفارابي، وهكذا كان اهتمامهم بالكتاب فضحوا بكل شيئ ليحافظوا عليه وليبقى للأجيال اللاحقة معينا ثرا ينهلون منه، وقيل لبعضهم: ما بلغ من سرورك بكتبك!

فقال: هي إن خلوت لذتي، وإن اهتممت سلوتي، وإن قلت إن زهر البستان، ونور الجنان، يجلوان الأبصار، ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل ويشحذ الذهن، ويحيي القلب ويقوي القريحة ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتع في الخلوة ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويعطي ولا يأخذ، ويفيد ولا يستفيد، و تصل لذته إلى القلب من غير سآمة تدرك ولا مشقة تعرض لك.

و قد صُنف في فضل الكتاب الكتب وقيل فيه القصائد والأشعار وعيون النثر، جاء في كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال أن ابن الحداد الوادي آشي قال في حسنات الكتاب، و هو من شعراء المرية من القرن الخامس الهجري:

ذهب الناس فانفرادي أنيسي
وكتابي محدثي و جليسي
صاحب قد أمنت منه ملالا
واختلالاً وكل خلق بئيس
ليس في نوعه بحي و لكن
يلتقي الحي منه بالرموس

وقال الجاحظ: لا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل إملالا وإبرارا، ولا أقل خلافا وإجراما، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من عضيهة، ولا أطيب ثمرة من كتاب.

وقد دخل الرشيد يوما على المأمون وهو ينظر في كتاب، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة، فقال الرشيد: الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه.

والباحث في كتب التراث والتراجم يجد أخبارا عجيبة في حب من سلف للكتاب، ويرى

التضحية العجيبة لأجل المحافظة على كتاب أو الحصول على كتاب، فقد ضحوا بكل شيء وأنفقوا ثرواتهم، وتخلوا عن لذائذ العيش ليتركوا كتبا قيمة، قال يعقوب بن سفيان: رحلت للعلم ثلاثين سنة، وكنت أدمن الكتابة ليلا حتى عميت، فبكيت على نفسي لما فاتني من العلم، وفي سبيل تحصيلهم للعلم صبروا كثيرا حتى أكل بعضهم الحشائش وبعضهم باع ثيابه ولم يتخلوا عن الكتاب والعلم يوما وبعضهم باع خشب سقف بيته ليحصل العلم، فيحيي بن معين خلف له والده أكثر من مليون درهم أنفقها كلها على العلم وتصنيف الكتب، وعند وفاته خلف من الكتب أكثر من مائة حمل. وبلغ من شدة حرصهم على اقتناء الكتاب وفهمه رحلتهم إلى عالم يقرؤون الكتاب عليه فالخطيب التبريزي عندما حصل على نسخة من كتاب - التهذيب - في اللغة للأزهري في عدة مجلدات، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة، دُل على المعري، فجعل الكتاب في مخلاة وحمله على كتفه من تبريز إلى المعرة ماشيا لفقره، فنفذ العرق من ظهره إليها، فأثر فيها البلل، وكانوا كما قال الحاكم النيسابوري: (آثروا قطع المفاوز والقفار، على التنعم في الدمن والأوطار، وتنعموا في البؤس والأسفار، مع مساكن أهل العلم والأخبار، جعلوا غذائهم الكتابة، وسمرهم المعارضة - مقابلة الكتاب الذي كتبوه بالكتاب الذي سمعوه أو نقلوا عنه - واستراوحهم المذاكرة).

وقد هجروا النوم ليكتبوا مسألة وليدونوا فائدة، فهذا البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة عدة مرات، فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره، وكذلك كان الطبراني الذي نام على الحصير ثلاثين سنة وقد خلف أكثر من خمس وسبعين مؤلف.

بهذه الهمم بنيت المكتبات، ووصلتنا علومهم وآثارهم.

وقد سار الأقدمون في البلاد وصبروا صبر الجماد، وبكروا كبكور الغراب، فصنفوا وجمعوا ودونوا، فهذا مكحول الشامي إمام وفقيه أهل الشام، ولد في كابل وتوفي بدمشق سنة ١١٢ هـ قال: طفت الأرض في طلب العلم، ولم أدع علما في مصر إلا حويته فيما أرى، ثم أتيت العراق ثم المدينة، ثم أتيت الشام فغربلتها.

وهكذا كانوا يطوفون في البلاد شرقا وغربا ليحصلوا العلم وبعد أن يستقروا يدونوا، فجاءت مدوناتهم مرجعا لمن بعدهم، فأبو سعد السمان الرازي وهو شاب عالم جامع يكثر من العلوم، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها على قدميه وسمع من ٣٦٠٠ عالم، وجمع كل ما سمعه وصنفه فترك الكتب الكثيرة، وأبو عبد الله بن منده طاف البلاد وسمع من ١٧٠٠ عالم وعاد بأربعين حملا من الكتب كان قد نسخها عمن سمعها عنه وقال: طفت الشرق والغرب مرتين.

أما ابن المقريء طاف الشرق والغرب أربع مرات وهو يجمع العلم ويدونه قال: مشيت بسبب نسخة المفضل ابن عضالة المصري سبعين مرحلة ولو عرضت على خباز برغيف لم يقبلها، وقال: لقد دخلت بيت المقدس عشر مرات - في طلبه للعلم - وكان مولده باصبهان.

والقاسم بن داوود البغدادي كتب عن ستة آلاف عالم وكذلك فعل أبو النصر السجزي.

وهذا أحمد الحجار علامة حلب توفي ١٢٧٧هـ كان يحب اقتناء الكتب، ومرة باع ثيابه التي كانت عليه ليشتري كتابا، وقد خلف مكتبة عظيمة.

أما بيعهم للكتاب فهذا شيء عظيم عليهم لأنهم كانوا يحافظون عليه كحفاظهم على أرواحهم وأولادهم، ولكن كانت الضرورة أحيانا تجبرهم على بيع كتاب فيخرجونه من مكتباتهم بشق الأنفس وكأن روحهم قد خرجت معه كما حصل مع أبي الحسن الفالي الأديب، فقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان، أنه كان يملك نسخة من كتاب - الجمهرة - لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضى بستين دينارا، وتصفحها فإذا بها أبياتا بخط بائعها تقول:

أنست بها عشرين حولا وبعتها
لقد طال وجدي بعدها و حنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها
ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغار عليهم تستحيل شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي
مقالة مكوي الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم من ربٍّ بهنَّ ضنين

فأرجع النسخة إليه وترك له الدنانير.

أما أبو الحسن الخولاني المعروف بالحداد المهدويّ فقد باع كتبه اضطرارا وفقرا، فسألته زوجته وهي تعرف حبه لكتبه وشدة تعلقه بها: كيف بعت الكتب وهي أعز شيء لديك؟ فقال لها أبياتا ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان وهي:

وقالت وأبدت صفحة
كالشمس من تحت القناع
بعت الدفاتر وهي آخـ
ـر ما يباع من المتاع
فأجبتها ويدي على
كبدي وهمّت بانصداع
لا تعجبي مما رأيت
فنحن في زمن الضياع

وبلغ من شدة حبهم للكتب أن فضلوها على كل شيء، فقد جاء في وفيات الأعيان أن الجرجاني القاضي قال عن موقع الكتاب من نفسه ومن لذاذة حياته:

ما تطعمت لذة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء عندي أعز من العلم
فما أبتغي سواه أنيسا
إنما الذل في مخالطة النا
س فدعهم وعش عزيزا رئيسا

أما الزمخشري علامة العربية ورئيس أهل اللسان فيها فقد قال واصفا تلذذه في صحبة كتبه وسهره معهم:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة
أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها
أحلى من الدوكاه والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها
نقري لألقي الرمل عن أوراقي

وقال بعضهم في الكتاب:

لنا جلساء ما نمل حديثهم
ألباء مأمونون غيبا وشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
ورأيا وتأديبا ومجدا وسؤددا

وقاضي مصر ابن لهيعة احترقت كتبه في سنة ١٦٩هـ فاغتم لذلك ومرض.

وبلغ من أمر أبو أيوب الشاذكوني أن فدى كتبه بنفسه لأنها جزء لحمه ودمه وروحه، فقد كان مرة بطريق أصبهان، فنزل المطر ومعه كتب، فلم يجد سقفا يحمي نفسه وكتبه من البلل، فانكب على كتبه يحميها حتى هدأ المطر.

وأبو جعفر القصري المغربي قال: لي أربعون سنة ما جف لي قلم، من كثرة ماينسخ بالليل والنهار وكان ربما باع بعض ثيابه،واشترى بثمنه كتاباً أو رقوقاً لنسخ كتاب.

وذكر ابن خلكان في وفياته أن ابن الدهان النحوي سيبويه عصره قد أفنى عمره في تحصيل العلوم وجمع الكتب والتصنيف واضطر إلى ترك بغداد وانتقل إلى الموصل ولسوء حظه حصل طوفان أغرق بيته وفيها كتبه وضاعت في الماء، ولما حملوها إليه أشاروا عليه بتبخيرها فبخرها بأكثر من ثلاثين رطلا، فطلع دخان البخار إلى رأسه وعينه فكف بصره.

هذه بعض المصائب التي تصيب الكتب وبعضها احترق – وسنفصل ذلك فيما بعد – وورد عن عمر بن علي الوادي آشي وكان من علماء القرن التاسع الهجري وعرف بابن الملقن أن مؤلفاته بلغت مائة مصنف وكان عنده من الكتب مالا يحصى ولكنها احترقت فاختل عقله على ما ذكره السخاوي.

وقال بعضهم في قيمة الكتاب:

هذا كتاب لو يباع بوزنه
ذهبا لكان البائع المغبونا

أمـا مـن الخـسران أنـك آخـذ

ذهـبا وتتـرك جوهـرا مكـنونا

وجـاء في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للأصبهاني أن بعضهم قال في الكتاب معبراً عن شدة لصوقه به:

لـصيق فـؤادي مـنذ عـشرين حجـة

وصـديق ذهنـي والمفـرج عـن همي

يعـز علـى مثلـي إعـارة مـثله

وآليـته أن لا يفـارقـه كمـي

الاهتمام بإنشاء المكتبات

أثـبت التاريخ القديم المكتشف أن بعض الحـضارات القديمـة اهـتمت منذ القديم بإنشاء المكتبات ويذكـر د.علي القيم في مجلة المعرفة العدد ٤٨٩ أن الآثار التي اكتشفت في إمبراطورية إبـلا تدل على تاريخها العظيم في المشرق القديم وكانت مساوية لحضارتي وادي النيل وبلاد ما بين النهـرين وكـان فيها مكتبة عظيمة قد عُثر عليها عـام ١٩٧٥م ضـمت نحو /١٦/ ألف رقيم طيني مـسماري تعـود للألف الثالثة قبل الميلاد، وتعد أرشـيفا ملكيا، وتشكل أقدم وأضخم مكتبة وثائقية فـي تـاريخ البـشرية، وضمت الموسوعات التي حوت معلومات أساسية من معرفة ونبات وحيوان وجغرافية ووثائق سياسية ومعاهدات سلمية وغير ذلـك عدا أنها تعد أقدم نصوص أدبية معروفة في بـلاد الـشام. وهذا دليل على أن منطقتنا أول من عرف المكتبات قديما، وهذه المكتبات تعرفنا بثقافة ذلك العصر وتلك المنطقة فتعد كنزا نادرا.

لكـن العـرب في الجاهلية لم يدونوا في الـسجلات والصحائف شيئا من مآثرهم وعلومهم وآدابهـم، وقـد يكون سبب ذلك أن الخط العربي الـذي انتقل إليهم من الأنبار لم يكن معروفا لديهم بعـد، ولكـن على الرغم من كل هذا، فإنهم كانوا أسـرع من غيرهم من الأمم القريبة والبعيدة إلى الكتابة والتدوين خاصة بعد ظهور الإسلام، وأثبت الـتاريخ أن أول خـزانة كتب عربية في الإسلام أنـشئت في دمشق من قبل خالد بن يزيد الأموي، وكانـت عامـرة بكـتب عديدة نقلت عن القبطية واليونانـية والـسريانية، وأكثرها تبحث في الطب والكيمياء والهندسة والفلك والفلسفة وتاريخ سير ملـوك الـيمن خاصة، والقبائل التي عاشت على أرضـها وأخـبارهم ومخلفـاتهم من شعر وعلوم وآداب.

وكثير من الخلفاء الأمويين اعتنوا بجمع الكـتب فأنـشأوا المكاتـب وأنفقوا عليها الأموال الطائلـة ووقفوا لها الأوقاف الكثيرة، فانصب أهل دمـشق علـى العلـم فأفلحوا ونبغ منهم العلماء الأعـلام مـن الـذين بقيت آثارهم إلى يومنا هذا ترفدنا بالعلم والمعرفة.

وفـي بغـداد جُمعت الكتب بعهد المأمون العباسي، ووضعت في خزائن ضمن عمارة عظيمة أطلقوا عليها اسم - دار الحكمة - وقد تحولت بعد إلـى نـاد أو مجمع علمي كان يجتمع فيه العلماء والباحثون والأدباء لعرض الآراء وللتزود بالعلوم والآداب والفـنون، وبقـيت الدار عامرة ومزدهرة طوال القرنين الرابع والخامس الهجري.

وفي مطلع القرن السادس الهجري بنى العباسيون مكتـبة بالكرخ في بغداد أطلقوا عليها اسم - دار العلـم - فكانت أكثر اتساعاً وأرحب مكاناً، وبقيت عامـرة ومزدهـرة حتـى وقت تدميرها وإتلاف محتوياتها من الكتب من قبل هولاكو وما أحرق لا يحصى كثرة ولا يُقوَّم نفاسة، وكذلك مكتبة سابور بن أرديشر في محلة بين السورين في الكرخ التي أسسها ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف كـتاب مجلـد، لكنها أحرقت عند دخول السلاجقة ٤٤٧هـ وكذلك كان في بغداد مكتبة أبي الحسن عـبد العزيـز بن إبراهيم حاجب النعمان جاء في الفهرسـت: ولـم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خـزانته لأنها كانت تحتوي على كل كتاب وديوان بخطوط العلماء المنسوبة.

وازدهـر فـن إنـتاج الكـتب في العالم الإسـلامي، ويعـود الفـضل في ذلك إلى اهتمام الأمـراء والأثـرياء وإقبالهم على اقتنائها، يقول القلقـشندي: إنه كانت ثمة ثلاث مكتبات كبرى في العـالم الإسلامي في بغداد العباسية، وفي القاهرة الفاطمـية، وفي قرطبة الأموية، وقد زار المقدسي فـي حدود سنة ٩٨٥م المكتبة التي أنشأها عضد الدولـة البويهـي فـي مدينة شيراز فقال عنها: وخـزانة الكـتب حجـرة على حدة، عليها وكيل وخـازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فـيها.. والدفاتـر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرس فيه أسامي الكتب.

ومـع ذلـك لم يكن اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات مقتصرا على الأمراء، فهذه كتب التراجم مليـئة بأسـماء فقهاء وأدباء اشتهروا بمكتباتهم الخاصة والكبيرة.

فعلى سبيل المثال ذكر ابن بشكوال في ترجمته للقاضي عبد الرحمن بن فطيس في أواخر القرن الرابع الهجري... أنه جمع الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان يجزل العطاء في شراء الكتب، وإذا لم يقدر على ابتياعه نسخهُ ورده لصاحبه، وكان لا يعير كتابا من أصوله، فإذا ألحف أحد عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ثم دفعه إلى المستعير.

وهذا الأديب الكاتب محمد بن يحيى الغافقي من أهل قرطبة في أوائل القرن الخامس الهجري كان جماعاً لدفاتر العلم من لدن صباه، منتقيا لكرائمها، بصيرا بخيارها، عارفاً بخطوطها، مؤثرا لها على كل لذة حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعد الحكم الخليفة.

والأديب الكاتب أحمد بن عباس، كان كاتباً عند زهير العامري صاحب المرية، قتله صاحب غرناطة باديس بن حبوس ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م كان جماعاً للكتب فصار عنده ما لم يكن عند ملك.

قال وراقة أنه أحصاها قبل مقتله بسنة فبلغت المجلدات أربعمائة ألف، أما الدفاتر المحزومة فلم يقف على عددها لكثرتها، وفي محنته كان حريصاً قبل كل شيء على كتبه، وطلب من قاتله أن يعتني بكتبه.

وبلغ من إكرام أهل العلم للكتاب ما ورد عن الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري أنه كان يمسك الكتاب في سباني الشرب - مناديل من رفيع الكتان - إكراما لها وصيانة.

وورد عن بعضهم أنه كان يقبل الكتاب ويرفعه في مكان عال احتراماً لما يحمله من علوم ومعرفة.

مصائب المكتبات

هذا الاعتناء المنقطع النظير بالكتاب أدى إلى الازدهار والحضارة، غير أن هذا الازدهار لم يسلم من نكبات حلت به على مدى العصور، وكان الكتاب قد ناله أكبر نصيب من حرق وإتلاف ونهب، ففي حياة الكتب والمكتبات الكثير من النكسات والمصائب، كالتي حصلت في العصر الحديث، فالكتاب لم ينج من المحرقة ففي القدس كان موجوداً أكثر من ٤٠ مكتبة قام اليهود بنهب أكثر من نصفها خلال احتلالهم لها، وكذلك فعل اليهود عندما اجتاحوا لبنان - ١٩٨٢ - فقد نهبوا جميع محتويات مركز الأبحاث والدراسات الفلسطينية في بيروت وهو المركز الوطني لجمع الوثائق والسجلات العديدة، وقاموا بترحيل المحتويات إلى فلسطين، وهناك تم تفتيشها وتصوير بعضها وبعد سنة من ذلك وإثر مفاوضات بينهم وبين الصليب الأحمر تم إرجاع تسعين طنا من الكتب والوثائق مع ١١٥٠ أسيرا مقابل ثلاث جثث لجنودهم قتلوا أثناء الاجتياح.

وما فعله محتلوا العراق مؤخرا من نهب لآثار ومكتبات العراق يدل على أن العدو أول ما يفعله هو سرقة حضارة وعلم البلد الذي يستعمره، فقد رحلت آثار وكتب العراق ولم يبق منها إلا الشيء القليل.

إنهم يدمرون ثقافة الأمم في عز ازدهار الحضارة وباسم الحضارة، وإن إتلاف الكتب والحكم عليها بالإعدام قديمة في التاريخ، فالفكر هو الإنسان ولكن الانتقام من الفكر كان دوما أشبه بشرب السيوف من الدماء عندما تراق، ولكن الحياة لا تموت وكذلك الكتب تحرق ولكن الفكر لا يموت إنما سيبعث من جديد.

عندما نشطت حركة التأليف والتصنيف في العصر العباسي رأى بعضهم أنه يمكنه الاستغناء بكتاب عن آخر إذا كان في الموضوع نفسه، لذلك يبيع بعض كتبه أو يتلفها، مع أن الجاحظ قال: قد نجد في نسخة ما لا نجده في النسخ الأخرى، لذلك لا ينبغي أن نستهين بشيء أو أن نطرح جانباً أي نص.

ومرور الكتاب بأزمات أدت إلى حرقه أو إتلافه جعلنا نخسر ملايين الكتب مما أبدعته العقول في العصور الغابرة.

فالبعض أحرق كتبه عمداً أو أغرقها أو دفنها أو فرقها أو غسلها من حبرها، ومما يؤسف له أن إحراق الكتب حدث في العالم الإسلامي كما حدث في مناطق أخرى من العالم، وقد أتت هذه الحرائق أساساً على كتب الهرطقة والكتب المفسدة للعقائد الدينية، ولذا اختفت الأصول المخطوطة لتلك المؤلفات، ولم يصلنا منها إلا مؤلفات العلماء الذين كثر اتباعهم مثل ابن عربي، فعلى رغم وجود من أفتى بإباحة إتلاف كتبه وربطها في ذيل كلب مثل كتابه الفصوص إلا أن أتباعه الكثيرون هم السبب في وصول مؤلفاته إلينا، ومثل الكتاب الذي ألفه أبو العلاء المعري الذي قيل أنه انتقد فيه القرآن فأتلفه أمين المكتبة، ولما علم بذلك الوجيه النحوي بعد زمن طويل من الحادثة، اعترض على إتلافه وقال: إن الكتاب إذا كان حقا في مستوى القرآن فيجب ألا يمسه أحد، وإذا كان أقل منه وهذا هو المؤكد فيجب حفظه كشاهد على تفرد القرآن الكريم وتميزه، وكأن الوجيه النحوي يؤكد على عدم إتلاف الكتب أيا كان نوعها، فكلها من إنتاج الفكر الإنساني.




يا قدس..

شعر : وداد طويل عبد النور

السّاحُ جَمْرٌ والدّما تنْساحُ
قَدْ طالَ حُزْنُك والأسى دبّاحُ..

في كُلِّ قَلْبٍ من جراحك غَصّةٌ
عَبَثاً تُضَمِّدُ جُرْحَها الأرْواحُ..

من أينَ آتي بالتجلّد والنُهى؟
قد داسَ حُرْمَةَ قُدسِنا السفّاحُ

أينَ الحَمِيّةُ؟ هَلْ خَبَتْ نيرانُها؟
هَلْ ماتَ هذا المَطْلَبُ المِلْحاحُ؟؟

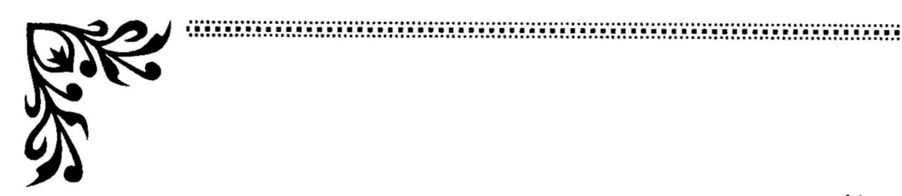
مَنْذا يُجيرُ القُدْسَ بَعْدَ تَصَدُّعٍ
بِدَمي فَدَيْتُكِ والفِداءُ مُباحُ..

من أينَ أبدأُ والمعابِرُ كُلُّها
طَلْقٌ يُصَوَّبُ.. مِدْفَعٌ يَجْتاحُ..

وأنا المُكَبَّلُ خَلْفَ جُدْرانِ الضّنى
كيفَ المُكَبَّلُ بالضّنى يَرْتاحُ؟؟

* * *




يـــا قُـــدْسُ يـــا جُـــرْحَ الـــسَماءِ بِناظِـــري
مَـــنْ قـــالَ لَـــيْسَ بِجُـــرْحِها جـــرَّاحُ؟

فـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ للـــشهادة مَـــوْكِبٌ
مُهَـــجٌ تَـــنُوءُ بِحَمْلِهـــا الألْـــواحُ

هـــي ثـــورَةُ الأحـــرارِ يـــا شَـــمْسُ اشـــهدي
بِـــدَمِ الـــبُطولَةِ يُـــوقَدُ المِـــصْباحُ

ســـنُعيدُ للقُـــدْسِ الأبـــيَّةِ زَهْـــوَها
ويُعـــيدُ نَـــشْرَ شِـــراعِهِ المـــلاَّحُ

سَـــنُعيدُ لـــلأرضِ الـــسليبة ناسَـــها
مِـــنْ بَعْـــدِ مـــا أضْـــنَتْهُمْ الأتْـــراحُ

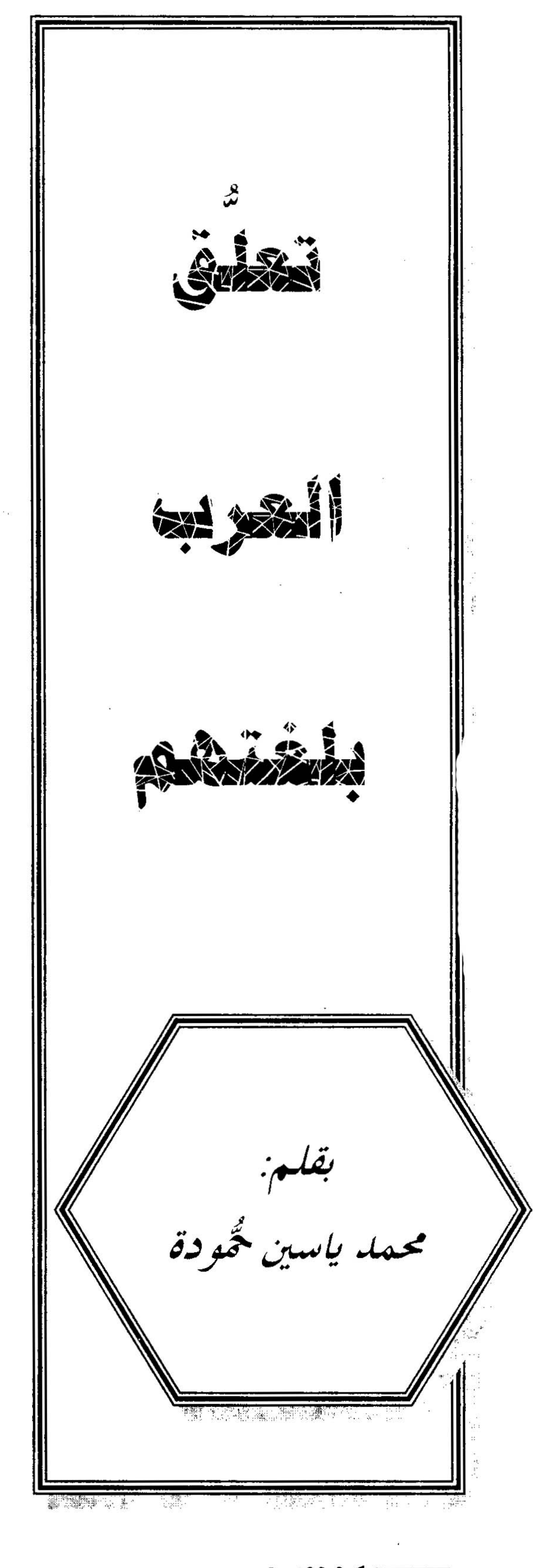
ســـنُعيدُ للأقـــصى الجـــريح سَـــلامَهُ
عَـــنْ صَـــدْرِ مَـــريَمَ غَـــيْمَةٌ تَنْـــزاحُ

ونعـــيدُ أســـرابَ الحَمـــامِ إلـــى الحِمـــى
وتُقـــامُ فـــي ســـاحاتِنا الأفْـــراحُ

ونَـــدُقُّ أجـــراسَ الـــسَماءِ تَهلُّـــلاً
وتَـــؤوبُ بَعْـــدَ فِـــراقِنا الأرواحُ..

هـــي ثَـــوْرَةُ الأحـــرارِ يـــا شَـــمسَ اشـــهدي
بِـــدَمِ الـــبُطولَةِ يُـــوقَدُ المـــصْباحُ



عرف عن العرب في الجاهلية براعتهم في إتقان لغة الضاد وتعلقهم بها بشكل لا يماثلهم به أحد من أهل لغات عصرهم، وذلك - في اعتقادي - بفضل عاملين:

الأول: انفراد اللغة العربية - من بين اللغات - بغناها ودقتها.

الثاني: نمط حياتهم، وبيئتهم البدوية الصحراوية، بعيدين فيها عن الصناعة والزراعة، مما أورث فيهم صفاء الذهن وقوة الذاكرة والإقبال على الشعر وما شابهه من أمثال وأقوال. وما المعلقات ومواسم الشعر إلا أمثلة واضحة تدل على ذلك وتشهد لهم على شدة اهتمامهم وتعلقهم بلغتهم.

ويشهد القرآن الكريم: لهم بهذا التعلق أيضاً، كما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت ٤٤].

ويذكر كتاب الله أيضاً بأنهم لم يكونوا على استعداد لتقبل كلام الله لو أنزل على غيرهم من الأمم وبغير لغتهم. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الشعراء ١٩٩].

من الطبيعي، بعدما رأيناه الإعجاز القرآني في أساليب تحدياته لهم - والذي كان من خصائصه مخاطبة العقول فيهم - أن تقبلوه استجابة لمضمونه بعد اقتناعهم بعظمته

واســتحالة صدوره عن بشرٍ من جهة، ولعدم تمكــنهم مــن الإتــيان بمــثله - حتى لو كان بعضهم لبعضهم ظهيراً - من جهة ثانية.

ونحــن فــي المهجر، قد تعلمنا لغات الآخــرين بــسهوله وتــذوق، ولكننا مع ذلك وجــدناها تفتقــر إلى العذوبة والجمال والدقة التــي تميزت بها لغتنا العربية. وشاهدناها هنا - في أمريكا الشمالية - أن شكل لغتنا العربية يثيــر أســئلة وإعجاباً عند مواطني هذه البلاد المــتحدرين مــن أصــل غيــر عربي، عندما يطّلعون على حروفها وطريقة كتابتها وتنقيطها وتــشكيلها، فــيجدون فيها أمراً شقيقاً يستحقّ النظر والتأمل والفحص.

كمــا نجدهم أيضاً يزدادون شوقاً وحباً بمعــرفة تــاريخ لغتــنا بعدما عرفوا أن كتبنا القديمــة لــم تكــن منقوطة، وأن العرب كانوا قادرين على قراءة ما يكتبونه دون صعوبة أو حــرج، وأنّ النقاط كانت قد أضيفت في عصر متأخــر نــسبيا، وأن قــواعد اللغة العربية قد وضعت أيضا في وقت لاحق، بعدما أوعز أمير المؤمنــين، علــي بن أبي طالب إلى أبي أسود الدؤلي القيام بمهمة وضع علم النحو.

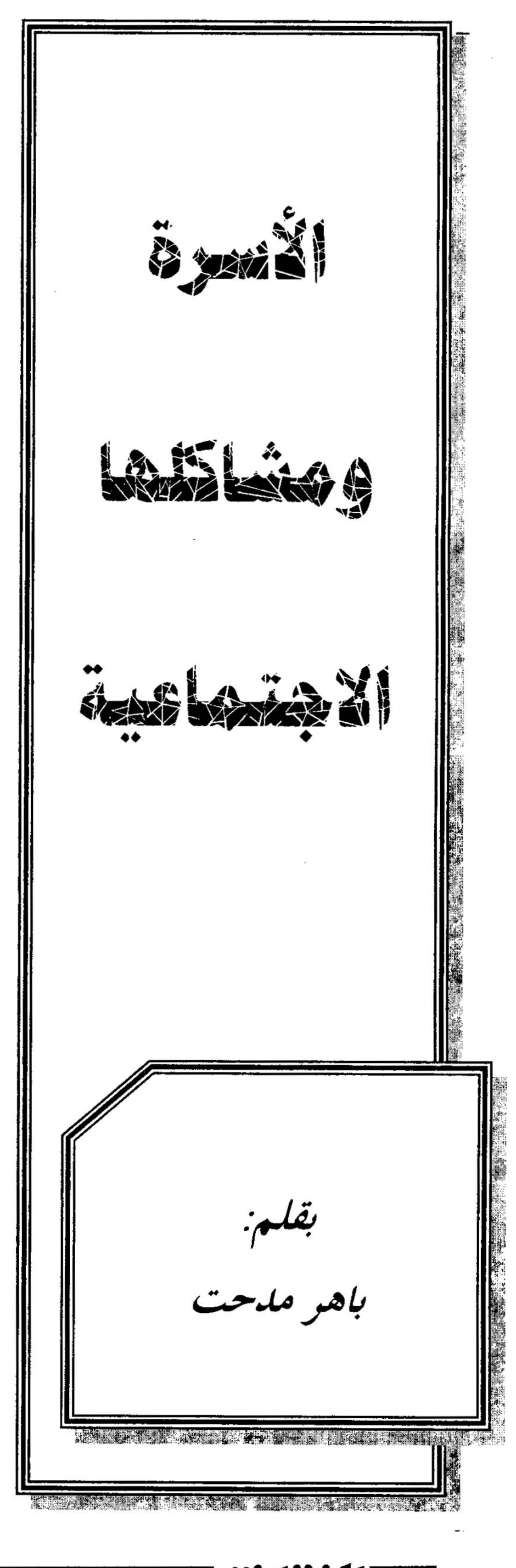
وإلــيك بعــض مــا قالــه أبو الأسود الدؤلــي، مؤســس مدرسة (البصرة النحوية) التــي تعتبر من أقدم المدارس النحوية في بلاد العــرب، ويــضاف إلــيها مدرســة (الكوفة) ومدرسة (بغداد) النحويتان:

"دخلــت على أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً. فقلت فيم تفكر يــا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلادكم لحناً، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربيّة. فقلت له: إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربيّة. ثم أتيته بعد أيام. فألقى إلي صحيفة فيها: بسم الله الــرحمن الــرحيم، الكــلام كله اسم وفعل وحرف... الخ"

فكان أبو الأسود الدؤلي أول من وضع علــم اللغــة العــربيّة، وأوّل من نقّط القرآن الكــريم. ثــم توافد الناس بعد ذلك عليه على وتلاميذه من بعده لتعلم اللغة العربيّة...

وجــاء الخلــيل بــن أحمد الفراهيدي، فــنقح مــا وضعه أبو الأسود وتلاميذه، وألف فــيها الكــتب ووضــع علم العروض للأوزان الشعرية.

وإضــافة إلى ضرورة تنقيط الحروف العــربية وضبطها، نجد أن الآمر بتأسيس هذه العلــوم الــنحوية، الإمــام علي بن أبي طالب كــان علــى درجة من العلم والتمكن والدراية بهــذه اللغــة الرصينة الجميلة - وذلك بفضل مــا تعلمــه من مربيه ونبي هذه الأمة، محمد ابــن عبد الله، العربيّ الهاشمي ﷺ - استطاع أن يلقي من على المنبر مرتجلاً خطبة لم يذكر فــيها حــرفاً واحــداً مــن الأحرف المنقوطة، مما حيــرّ عقــول الأدبــاء، وأفحم الخطباء والشعراء.



الأسرة ومشاكلها الاجتماعية

بقلم: باهر مدحت

الأسرة وحدة المجتمع وأهم جماعة فيه فهي اسبق نظام في التاريخ الإنساني وجدت قبل أن يقوم أي نظام اجتماعي آخر أو سياسي أو ديني أو اقتصادي كما أنها نواة المجتمع التي تعكس عليه صفاتها ومميزاتها وتمده بكل ما فيها من محاسن أو مساوئ.

وما في المجتمع من عادات ومشكلات نشأ معظمها مع نشأة الأسرة فتقسيم العمل نشأ في الأسرة بتخصيص الواجبات بين الرجل والمرأة بل إن العمل الذي يختاره الفرد لنفسه يتوقف إلى حد كبير على نوع العمل الذي يقوم به أبوه أو على نوع التربية وطرقها التي تتبعها الأسرة، وكذلك الأمر في الدين فالابن يحترم عقيدة والديه يعتنقها، وكذلك الأمر في الملكية والتوريث بل إلى ابعد من ذلك فالرعاية الاجتماعية وطرق الخدمة العامة كرعاية المسن والمريض والعاجز وخدمة الفرد والجماعة، كله بدأ من ربوع الأسرة وانتقلت هذه الشؤون بعد ذلك تدريجياً ومع تقدم الزمن وتعقيداتها وتطوراتها للهيئات والدولة.

فضلاً عن ذلك فإن الأسرة هي النظام الطبيعي الذي يكون فيه الفرد نزعاته وميوله، ورغباته، وعواطفه، وأحاسيسه ومشاعره فيتعلم من الأسرة التضحية والتعاون والإنسانية والتفاني والتنافس وروح الإخلاص والغيرة وحب الوطن كما يتعلم فيها إذا فسد جوها روح التنكر والحقد والحسد والضغينة وحب الذات والميل إلى الانتقام.

والأسرة في جميع تطوراتها من حيث الشكل والسلطة أو الحجم لا بد لها من توفر شروط وأركان خاصة لقيامها كالمعاشرة الزوجية وأسسها على نظام يحدد بمقتضاه الحقوق والواجبات بين الزوجين ووجود محور

قرابة ينظم النسب في الأسرة فقد كان يعرف الشخص قديماً بنسبته إلى الأم (نظام الأمومة أي زعامة الأم) أو نسبته إلى الأب (نظام الأب الرئيسي) مع ضرورة قيام نظام اقتصادي معين يحدد الحقوق الاقتصادية من قبل الزوج أو الزوجة كمسؤولية الإنفاق والصداق والنفقة في حالة الطلاق وغير ذلك وكل هذا له أثره في حياة المجتمع وسن القوانين الوضعية العامة التي تساير هذه النظم الأسرية.

والواقع أن نظام الأسرة في عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وصفاتها وأنظمتها الداخلية وحجمها وسلطتها ومشكلاتها مقياس تستطيع به أن تقيس أحوال المجتمع الخاصة والعامة في شتى النواحي.

ولا ننكر أن المجتمع بدوره يؤثر في حياة الأسرة ونظامها فنظام زعامة الأم نشأ في عهد كان فيه حق الأم غالباً وكانت فيه القرابة ممتدة في سلك الأنثى وأكبر سبب في هذا أن الحياة كانت يومئذ بدائية وكان الرجل صياداً يجوس الغابات والفيافي والقفار ليحصل على قوته وقوت أولاده مهدداً بالقتل وافتراس الوحوش وعدم العودة لبيته، أما الأم فكانت مستقرة في منزلها تربي أولادها.

ومن ثم نشأ من الأسرة نظام الحياة واصبح الرجل زارعاً مستقراً أو صانعاً في بيته أو مصنعه يعود لأولاده آخر النهار كاداً بجهده لسعادة أولاده وجعلهم أعضاء عاملين في مجتمعهم نشأ نظام زعامة الأب في ربوع الأسرة.

حقاً إن للأسرة مشاكلها الاجتماعية وإن هذه المشاكل تنعكس على المجتمع في صور شتى. ولذلك نجد أن الاهتمام متزايد سواءً من جانب الدولة أو رعاية الهيئات الأهلية للإقلال من هذه المشاكل الأسرية فكلما عني بحلها أو الإقلال منها مع الوقاية من أعراضها كلما كان لذلك أثره البالغ في حياة المجتمع بأسره.

وموضوع بحث مشاكل الأسرة يتناول أولاً وقبل كل شيء تحليل مركز الأسرة في المجتمع كما يعرض التغيرات التي طرأت على وظيفة الأسرة وبنائها في العصور الحديثة.

والواقع أن هناك تفاوتاً كبيراً بين مجتمع وآخر في مدى هذه الصفات أو ضعفها.

إن مركز الأسرة في المجتمع يتميز مهما تباينت صفاتها بخصائص هامة أهمها:

أولا: العمل على بقاء الجنس البشري وهذا من وجهة نظر المجتمع من أهم وظائف الأسرة غير أنه من وجهة نظر الوالدين يشيع فيها غريزة حب النسل وعاطفة الأبوة والأمومة لإنشاء جيل مؤمن بعقيدته شجاع بنفسيته قوي بشخصيته.

ثانياً: إشباع الغريزة الجنسية إشباعاً منظماً مقدساً.

ثالثاً: إيجاد المسكن اللائق الذي يأوي إليه أفراد الأسرة ويشعرون بداخله بالراحة والطمأنينة مادياً ونفسياً ومعنوياً.

وتتوقف سعادة الأسرة على مبلغ تحقيقها لهذه الأغراض مجتمعة وفي الواقع أن المجتمع الناهض هو الذي يمكن الأسرة من بلوغ هذه الأهداف دون أن يكون في تحقيق الواحد منها انتقاص للآخر.

وأهم المشاكل التي تقوم في حياة الأسرة وتقعدها عن القيام بوظائفها الرئيسية فتسلبها السعادة والهدوء والاستقرار وهي:

أولا: عدم الشعور بالسعادة فكثيراً ما تسأل الناس عن مبلغ شعورهم بالسعادة

الزوجية فيجيبونك أن متاعب الزواج تفوق لذائذه وأن العزوبة على ما فيها من عيوب ومتاعب تفضل الزواج وما يجبه من مسرات...

والحق أن في هذا القول نصيباً من الصحة وإن كان المتزوجون يغالون في التصوير والسبب في ذلك أن الشباب عند إقبالهم على الزواج لا تكون لديهم فكرة واضحة عن ماهيته وأغراضه ويتقدمون إليه في شيء من الاستخفاف والاستهتار إما بدافع شخصي مؤقت أو لتحقيق غرض واحد من أغراض الحياة فالرجل قد يندفع إلى الزواج من فتاة ملكت لبه بمحاسنها الجسمانية فينظر إلى جمالها فقط دون أي اعتبار آخر من الخلق والأخلاق أو الحصول على غنم مادي ويكون بذلك تفاوتاً شاسعاً وعدم تكافؤ لا في الثقافة والحسب والمدركات والوعي فحسب؛ بل لقضاء شهوة مؤقتة فقط والفتاة بدورها قد تقبل على الزواج من شاب استولى على شعورها، يحلو حديثه أو جاهه مظهره أو قد يكون لمجرد الزواج للحصول على من ينفق عليها في سعة وطلباً لحب الظهور والجاه، كل هؤلاء يخطئون التقدير ويسعون إلى الشقاء بخطوات سريعة ويفقدون الحياة الزوجية السعيدة ويملون أركان الأسرة شقاء وانحلالاً هنا يجب أن يفهم كل راغب في الزواج أن الأنانية هي أول أسباب الشقاء، فمن الضروري أن يعلم الشاب والفتاة أن الزواج وتكوين الأسرة شيء جليل وأمر خطير يجب أن تدبر أموره بحسن الاختيار فالزوجة الكاملة هي التي تجذب الزوج إليها بكمال صفاتها وأخلاقها وحسن معاشرتها كما قال الله تعالى ((ولهن مثل الذي عليهن))

كما يجب أن تكون فترة الخطوبة أي ما قبل الزواج فترة مناسبة ليمكن لكل من الخطيبين أن يتفهم الآخر ويعرف مشاعره وأحاسيسه ويتلاءم كل منهما للآخر في حدود إمكانياته وقدراته الخاصة.

وعلى ذلك فمن الضروري على من اعتزم الزواج أن ينظر في فتاة أحلامه إلى تلك الصفات الخلقية التي تبدو آثارها في كل يوم من أيام الحياة الزوجية، تلك الخلال والصفات التي تبقى بل ترقي على مر السنين وكر الأيام بعد أن يذبل الجمال الجثماني ويشتعل الرأس شيباً إذ لا قيمة لجمال الجسم دون جمال الخلق (امرأة فاضلة من يجدها ثمنها يفوق اللآلئ). وبذلك يكون لزاماً على من اعتزم الزواج أن يبحث عن تلك المزايا ويختار صاحبتها حتى يستطيع أن يجد ضالته المنشودة اذ لا سبيل باستقرار الزواج ما لم يكن الاحترام لكمال الأخلاق مقروناً بالحب للجمال الذي يثير في النفس عاطفتي التقدير الشخصي والحب.

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الزواج رحلة طويلة مع زميل مجهول إلى أرض مجهولة، فعندما يركب الزوجان القارب من شاطئ البحر العباب بحر الحياة ويطلقان الشراع للريح تبدأ رحلة مليئة بالمفاجآت والمغامرات وكلما بعد الشاطئ وتوارى عن نظر جمهور المودعين انصرف كل من الزوجين إلى زميله يأنس إليه ويفتح قلبه له معضداً إياه بكل ما حوت النفس من مشاعر وعاطفة، كل يصبو أن تكون الرحلة طويلة وسيدة والبحر هادئاً والرياح رقيقة مؤاتية.

ومن عجب العجاب ونحن في هذا العصر نرى أن الزوجين يقومان بمثل هذه الرحلة الخطيرة في قوارب زاهية البنيان

مزركشة الأركان دون أن يلما بأبسط قواعد الملاحة ظناً منهما أن زرقة البحر وهدوء النسبي ومجال الشمس الساطعة هي كل ما في الرحلة من ألوان.

ترى هل علم هؤلاء أن البحر قد يرغي ويزبد ويهدر وأن الهواء قد يتحول ريحاً عاصفة وأن الشمس قد تتوارى وراء السحب القاتمة وتتركهم في ظلام دامس.

فليس الزواج أثاثاً ونفائس وثريات بل أن العش الهادئ البسيط في جو يسوده الوئام والمحبة والتفاهم هو أقيم من القصور الذي يخيم عليها الشقاء والتعاسة بين الزوجين.

أما المشكلة الثانية فكثرة الأولاد وعدم تحديد النسل، فالأسرة قد تضيق ذرعاً بمواردها القليلة ومع ذلك تنجب أولاداً كثيرة مما يدعو إلى افتقارها وعدم قدرتها على سد حاجاتها والوقوع فريسة للأعداء الثلاثة الفقر، والجهل، والمرض.

إن ظاهرة تعدد الزواج وكثرة الأولاد ظاهرة اجتماعية بين الطبقات الفقيرة فإن الوعي النسلي وتحديده لم يخطر لهم على بال ويرون فيه خروج على الدين وزندقة وقتل أرواح. وهذه المشكلة قد تؤدي إلى تفاقم الخطر على المجتمع فيكثر المتشردون والمتسكعون وتكثر الجرائم بالتالي كما نرى أن الموصومين عقلياً يتزاوجون ويتناسلون في كثرة مذهلة بينما هناك نقصان كبير في حجم الأسرة بين الطبقات المتعلمة والمثقفة والثرية مما ينتج عنه تضخم عدد أفراد الأسرة بين غير قادرين والفقراء والمرضى.

وقد سبق الإسلام إلى ذلك فقد قال النبي العربي ﷺ : ((قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين)).

وقد اهتمت الدول الحديثة بأمر ضبط الانسال خصوصاً في العائلات الموصومة ومرضى العقل والنفس والصرعى والمتعطلين والمجرمين العائدين وذوي العجز الاجتماعي في مختلف صوره بطرق إيجابية وأخرى سلبية بل أصدر بعضها التشريعات اللازمة لتنفيذها.

إن المدينة الحديثة قامت في أكثر الدول على الاشتغال بالصناعة بعد أن كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية وبهذا تغير الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأسرة.

فعندما كان من صالح الأسرة الزراعية أو الرعوية أن تكون كبيرة العدد مرهوبة الجانب قوية العصبية أما الآن وقد أصبحت الصناعة الحرفة السائدة فتشتت أفراد الأسرة في جهات مختلفة وسنت القوانين التي تحرم اشتغال الأطفال لسن معينة بالصناعة فقد تلاشت الدوافع وتضاءلت الأسباب التي كانت تشجع الرجل على الإكثار من الذرية.

والاتجاه الآن في الحياة الحديثة تقضي بالتزام النسل ليتيسر رفع مستوى المعيشة بين الأسرة وإمكان رعاية الأطفال رعاية تامة من مأكل ومشرب وملبس وتعليم وتثقيف، الأمر الذي يتطلب نفقات باهظة وتكاليف مرتفعة.

وتساعد الدول الحديثة هذا الاتجاه الآن إذ أن اهتمام هذه الدول من ناحية السكان هو بالكيف لا بالكم إذ يهمها أن يكون رعاياها في مستوى حياة كريمة ذوي صفات عالية من حيث التعليم والقدرة على الإنتاج وتحمل المسئوليات.

أما المشكلة الثالثة وهي مشكلة عويصة لأنها شديدة الأثر في انحلال الأسرة وتداعيها وتفككها ألا وهي الطلاق.

والواقع أن منشأ هذا الطلاق قد يرجع بنسبة كبيرة إلى أمور منها سوء الاختيار وعدم التوفيق في انتخاب الزوجة الصالحة، ومن أسبابه أيضاً عدم التكافؤ العقلي والذهني وقد يكون منشأه أيضاً الكراهية وعدم التعاطف الجنسي أو الاختلاط مع النساء الفاجرات الذين لا يبغون من حياتهم سوى الدراهم والمظاهر الرشيقة ومنها سهر الرجل خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل فإن ذلك ممل لقلوبهن وسبب لارتيابهن ومنها عدم مؤانسة الأهل بالأحاديث اللطيفة، ومنها حجز المرأة في البيت ضراراً وضياع حقها المشروع ومنعها من التصرف في أموالها وزيارة أهلها وأقاربها فإن النساء إذا شدد في مضايقتهن خشي انفجارهن وعندها تتشتت الأسرة المتكاتفة وتتفرق عراها المتواصلة.

وقد اختلفت وجهات نظر الدول وقوانينها نحو الطلاق، ففي ايطاليا وايرلندا وسائر العالم الكاثوليكي يحرم الطلاق بتاتاً ولو أنه في بعض الظروف يحكمون ببطلان الزواج إذا اتضح أن أحد الشريكين قد خدع الآخر فإن تكون الفتاة غير عذراء أو يكون الزوج فاقداً للحاسة الجنسية وفي بعض الأحيان تبيح قوانينهم الدينية الانفصال الجسماني، فتبقى العلاقة الزوجية قائمة ولكن مع انفصال الزوجين عن بعضهما.

أما الإسلام فقد أباح الطلاق بشروط حفظ فيها حق الطرفين وشدد على المسلم أن يستعمل هذا اللفظ ألعوبة يلهو بها في كل وقت بل أعلمه أن الطلاق لا يكون إلا إذا أصبحت الحياة بين الزوجين ناراً لا يطفأ لهيبها وشرط له إحضار حكمين للفصل بينهما بالعدل دون تحيز لإحداهما، ولئن انتشر الطلاق في هذه الأيام فإنما هو من جراء الجهل بأحكامه وميول بعض الأزواج إلى أهوائها المتتابعة.

أما المشكلة الرابعة فهي مركز المرأة الحالي الاقتصادي في المجتمع فإذا خرجت المرأة للعمل وتركت بيتها وأطفالها بدون عناية ولا تربية جهلت في الأسرة انحطاطاً في العيش والكرامة، وكثيراً ما ينشأ عن هذا مآسي كثيرة لا تكون فيها المرأة قادرة على أن تكون ربة بيت ولا مربية لأطفالها ، وغير قادرة على ملازمة عملها، وهناك تحدث المشكلة ويقترب شبح الخلاف في الأسرة.

وكثيراً ما تتضارب سلطة الرجل على زوجته وسلطان رب العمل على موظفته إذ كثيراً ما يحدث أن تتأخر الزوجة في العمل بأمر صاحب العمل للحاجة إليها، والزوج يطلب منها أن تعود في مواعيدها، فإلى أيهما تستمع وأيهما تطيع، الزوج أم رب العمل فللإبقاء على عملها بطبيعة الحال تطيع صاحب العمل وتخالف أمر زوجها، وهنا قد يتأثر الزوج بكبريائه في مثل هذه المشكلة ويقوم الخلاف بينهما.

وكثيراً ما يكون الخلاف في أمر دخلها، هل هو ملك خاص لها أم شركة بينهما للإنفاق على الأسرة..؟؟

ومن هنا تنشأ الخلافات ويتفاقم أمرها وقد تنتهي إلى الطلاق والواجب في مثل هذه الأمور كلها أن يفهم كلا من الزوج والزوجة أن الحياة العائلية ما هي إلا شركة تعاونية بينهما يتقاسمان فيها السراء والضراء ويتحمل كل منهما نصيبه من الجهد والرعاية في سبيل إسعاد الأسرة وقيامها على أسس تعاونية سليمة ليكتمل لها ظروف السعادة والهناء.

إن المشاكل الاجتماعية للأسرة في طريقها الآن في جميع العالم إلى الإقلال والانخفاض وذلك بفضل تقارب وجهات النظر ونشر الوعي بين الشباب عن أهمية الروابط الزوجية وقدسياتها وهذا الاهتمام لنشر الوعي الاجتماعي بدور الأسرة ونظامها وحل مشاكلها لا تقوم به الدولة وحدها إنما تسهم فيه الجماعات والهيئات والمؤسسات المختلفة.

وفي عهد ثورتنا الناهضة نرى اهتماماً كبيراً ورعاية شاملة من جانب الدولة بشؤون الأسرة والعمل على رفع مستواها مادياً وأدبياً بل أن دستور الجمهورية العربية السورية هدف إلى حماية الأسرة ووقايتها بنصوص صريحة في مواده، كما تضمن تشريعات بحماية المرأة الموظفة والعمل على تيسير قيامها بواجباتها الأسرية.

وقد عملت الجمهورية العربية السورية على نشر التعليم وجعله إجبارياً في المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الاعدادية (بالمجان) ووسعت فيه ويسرته في المراحل الأخرى حتى المرحلة الجامعية وأنشأت المستشفيات والمؤسسات الاجتماعية والوحدات الاجتماعية لتعمل بنصيب وافر على حل مشاكل الأسرة الاجتماعية اقتصادياً واجتماعياً بصرف إعانات ومعاشات اجتماعية للأسر الفقيرة ومعالجة المرضى والعاطل والعاجز عن العمل ومساعدة الحالات الطارئة كالوفاة والطلاق وغيرها.

كما أسهمت المؤسسات الأهلية التي انتشرت في أرجاء البلاد لحل مشاكل الأسرة وتقدمت في خدماتها تقدماً ملحوظاً يسر على الأسرة الفقيرة والمحتاجة والمحرومة نفسياً وصحياً واقتصادياً أن تحيا حياة كريمة في ظل وراف من الرعاية الاجتماعية.

كما انتشرت معاهد الخدمة ودراسة الاجتماع في الكليات والجامعات مما ساعد على تخريج أخصائيين على حل مشاكلها على أسس علمية فنية صحيحة بل وعلى العمل على تنظيم المجتمع وتنسيق موارده بالنسبة لحاجاته.

كل ذلك أدى بلا شك ويؤدي وسيؤدي حتماً إلى حل مشاكل الأسرة والتخفيف من أعبائها والتزاماتها بحيث تحيا الأسرة في رغد من العيش وفي رفاهية دون تعسر أو ضيق.

ولم تنس الدولة الأطفال الذين بلا أسر، فلقد أنشأت الملاجئ والمؤسسات الاجتماعية للذين قست عليهم الطبيعة فحرمتهم من أسرهم إما بالوفاة أو الطلاق أو ما شابه ذلك.

كما أنشأت الدولة مكاتب الزواج لمن يرغب لبحث حاله والكشف عليه طبياً لمنع انتشار الأمراض في الأسر ووقايتها من العدوى. وما ينتج من مشاكل كبيرة.

ومن هنا نرى أن الجهود التي تبذل في سبيل خدمة الفرد وخدمة الجماعة في نطاق الأسرة سواء من الدولة أو من الهيئات والمؤسسات الأهلية، إنما ستكفل بلا شك إلى التقليل من مشاكل الأسرة والعمل على إسعادها ورفاهيتها لتشق طريقها في تأدية رسالتها قدماً وإلى الأمام.

ونشكر الله على ما أعطانا لما فيه خير لصالح العام وخير الأسرة ودبر لها من أمرها رشدا.

ونسأل المولى أن يسدد خطى جمهوريتنا لما فيه إسعاد مجتمعنا السياسي والاجتماعي والثقافي.




لأنك حبيبي..

شعر: محمد عبد الحكيم دبدوب

حبيبـــي فـــي جـــنون جـــئتُ أســـألْ

هـــل الحـــبّ الـــذي نحـــوي تـــبدّلْ

لأنـــك يـــا حبيبـــي الـــرّوحُ تـــسري

بأوصـــالي، فمـــاذا ســـوف تفعـــلْ؟

لأنّـــك يـــا حبيبـــي مَـــنْ يُـــسوّي

لقلبـــي دربَـــهُ ليـــصيرَ أســـهلْ

وإنّـــك يـــا حبيبـــي حـــينَ تأتـــي

إلـــيّ أصـــيرُ بـــينَ الـــنّاسِ أجمـــلْ

وإنّـــك يـــا حبيبـــي حـــين تـــرنو

إلـــى عينـــيْ، يـــصيرُ الـــرّمشُ أكحَـــلْ

حبيبـــي كـــم شـــكوتُ هـــواكَ ردحـــاً

وقـــبلكَ كـــنتُ ظُلـــمَ الحـــبّ أجهـــلْ







حبيبـــي كــم كتــبْت الآهَ شــوقاً

إلـــى عينـــيكَ، يـــا طفلـــي المُـــدلّلْ

حبيبـــي كـــم شـــربتُ المُـــرّ صـــبراً

وعـــنكَ بحـــرقة كـــم كـــنت أســـأل

وجـــئتَ إلـــيّ يُنـــبوعاً غزيـــراً

مـــن الآمـــال، هـــذا القلـــب بلّـــلْ!!

وجـــئتَ إلـــيّ أزهـــاراً تـــرامتْ

علـــى مـــرْجٍ بلقـــياها تكلّـــلْ

وجـــئتَ إلـــيّ نـــوراً لـــيس يخـــبو

أتـــيت إلـــيّ كـــالحلمِ المـــؤجّلْ

أنـــا أهـــواكَ فـــارحمْ لهْـــفَ قلـــبٍ

بـــلا نجـــواكَ فـــي قهـــرٍ تعلّـــلْ

أنـــا أهـــواك فاســـمعْ صـــوت حُبّـــي

فهـــلْ أنـــت الـــذي بالحـــبّ يـــبخلْ؟؟

أنـــا أهـــواك، أنـــصفْ أمنياتـــي

وإنّـــي مـــن فـــضولي صـــرْتُ أخجـــلْ

أحـــبّك، أعطنـــي قيـــراطَ حـــبٍّ

وخـــذْ قلبـــي الـــذي تُدمـــيه.. وارحـــلْ






التمايز في فن الغزل عند الشعراء العرب

بقلم:
فريد محمود كندو

إن شعرنا العربي على امتداد قرون طويلة حافل بالكنوز الثمينة تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها مشرقة مضيئة ليتذوقها القارئ ولننظر كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه شكلا وملامح ووجداناً وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من الخارج تمثال جمال بمقاييس خاصة من خلال ذوق صحراوي معين خلع ظله على عصور شعرية متتابعة ثم لنتأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقاً جديدة وملامح وسمات لم تكن لها وكيف أصبحت نظرتهم إلى المرأة المحبوبة نظرة إلى كائن إنساني يموج بالمشاعر والعواطف والأحاسيس وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعففهم السامي المجرد.

الحب.. هذه الكلمة الجميلة التي تطرب لها القلوب هذه العلاقة السامية والتي اشتعلت من أجلها حروب كثيرة واخضرت لها ربوع، لها عند العرب أسماء كثيرة، وكما قيل كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

وقد ذكر ابن قيم الجوزية في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) حوالي خمسين اسماً منها (الهوى - العلاقة - الكلف - الشغف - الجوى - التيتم - التدله - الهيام.. إلخ) ومع أن الأسماء كثيرة ولكن أهم درجة للحب وبلا منازع (العشق) وهو إفراط في الحب وتحطيم للعاطفة حيث أنه أمرّ أنواع الحب.

قال الشاعر عباس بن الأحنف متغزلا بمحبوبته (فوز):

إذا جاءني منها الكتابُ بعتبها
خلوتُ بنفسي حيثُ كنتُ من الأرضِ
وأبكي لنفسي رحمةً من عتابها
ويبكي من الهجران بعضي على بعضي
وإني لأخشاها مسيئاً ومحسناً
وأقضي على نفسي لها بالذي تقضي
فحتى متى روحُ الرضا لا يصيبني
وحتى متى أيامُ سخْطكِ لا تمضي

وقال ابن سهل:

ما أرى الخال فوق خديك ليلاً على فَلَقْ
إنما كان كوكباً قابَلَ الشمس فاحترقْ

وقال ابن زيدون في محبوبته (ولادة):

أُسلبُ من وصلكِ ما كسيتُ
واعزَلُ عن رضاكِ وقد وليتُ
فديتك ليس لي قلب فأسلو
ولا نفس فآنفَ إن جُفيتُ
فإن يكن الهوى داءً مميتاً
لمن يهوى فإني مستميتُ

وقال عبد الله بن المعتز:

أيها العازلون لا تعزلوني
وانظروا حسن وجهها تعذروني
وانظروا هل ترون أحسن منها
إن رأيتم شبيهها فاعذلوني

بي جنونُ الهوى وما بي جنونٌ
وجنونُ الهوى جنونُ الجنون

وقال ابن صمادح:

وحقاً أنها جنون
تسل من لحظها المنونْ
لا صبر عنها ولا عليها
الموت من دونها يهونْ
لأركبنَّ الهوى إليها
يكون في ذلك ما يكونْ

وقال حبيب بن الأحمد الأندلسي:

ودعتني بزفرة واعتناقي
ثم نادت متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها
بين تملك الجيوب والأطواقِ
يا سقيمة الجنون من غير سقمٍ
بين عينيك مصرع العشاقِ

وقال الصاحب بن عباد:

لقد قلتُ لمَّا أتوا بالطبيب
وصادفني في أمري اللهيبِ
وداوى فلم أنتفع بالدواء
دعوني فإن طبيبي حبيبي
ولستُ أريد طبيب الجسوم
ولكن أريد طبيب القلوبِ

وقال الأصمعي:

أيـــا معـــشر العـــشاق خبـــروا
إذا حـلَّ عـشقٌ بالفتـى كيف يصنعُ
يـداوي هـواه ثـم يكـتم أمـره
يخـشع فـي كـل الأمـور ويخضعُ
فكـيف يـداري والهـوى قاتـلُ الفتى
وفـي كـل يـومٍ روحـه تـتقطع
إذا لـم يجـد صـبراً بِكـتمانِ سـره
فلـيس لـه سـوى المـوت أنفـع

وقـال الـشاعر أبـو جعفـر عثمان المصحفي متغزلاً:

لعينـــيكِ فـــي قلبـــي عـــيونٌ
وبـين ضـلوعي في الشجون فنونُ
لأن كـنت مغـرماً فـي الهـوى
فحـبكِ فـي الفـؤاد مـصونُ

وتغنـى مطـرب الملـوك محمد عبد الوهاب فأنشد:

أغـار مـن قلبـي إذا هـامَ لـرؤياكِ
وأنـتِ المنـى والروح فكيف أنساك
إنـي بـشوق متـى الأيـام تجمعـنا
وأُسـعدُ فـؤادي بقـربٍ من محيّاكِ
والطيـر يـشدو بهمـس حين يسمعنا
وجـاور الدمـع مـن عينـي عيناكِ

أهـيمُ فـيك ونـار الـبعد تحرقنـي
وقلبـي الخفـاق بالأشـواقِ نـاداك

سعاد، للدكتور مانع سعيد العتيبي

يحـتلُ حُـبكِ يـا سـعاد ضـميري
ويحـلُ فـي عقلـي وفـي تفكيري
لـولا هـواكِ لمـا صعدتُ إلى الذرى
ولمَّـا نـصبت على السحاب سريري
أدري سـعاد بـأن عـدلكِ دائـمٌ
وبـأن ظُلـمَ الحُـبِّ غيـرُ خطيـرِ
مُـدي يـديك التـي إنـي خائـفٌ
أنْ تفلتـي مـن اضـلعي وتطيـري

وقـال عـبد الله يوركي حلاق شاعر حلب وصاحب مجلة الضاد:

أغـار علـيك مـن سـرب العـذارى
ومـن قُـبلِ النـسائمِ فاطمئنـي
فأنـت ملـيكة الإخـلاص عـندي
وليـستْ غيرتـي مـن سـوء ظني
ولكـن مـن يُحـبكِ مـثلَ حُبـي
يغـارُ علـيك مـن إنـسٍ وجنـي

ومـع ذلك إن القلب لا يشيخ ولكنه ينبض في كل مرحلة من مراحل العمر بما يلائمهـا مـن العواطـف والروح أيضاً لا تعتريها الشيخوخة إلاّ بإرادة صاحبها...




النَّهْرُ سَلَّ حُسَامَا..

شعر: لابن مهلهل

النَّهْـرُ سَـلَّ حُسَـامَا   علـى قُـدُود الغُصُـونِ

وللنَّـسِيمِ مجـالُ

والـروضُ فـيه اخْتِـيَالُ

مُـدَّتْ علـيه ظـلالُ

والزَّهْـرُ شـقَّ كِمَـامَا   وَجْـداً بتـلكَ اللُّحُـونِ

أَمـا تـرى الطَّيْـرَ صَاحَا

والـصُّبْحَ فـي الأُفْقِ لاَحَا

والزَّهْـرَ في الروْضِ فَاحَا

والبرقَ سـاقَ الغَمَامَـا   تَبْكـي بدمـعٍ هتُـونِ